فدك و جمانـــة

(روايـــــة)

بقلم / رويـــــدة الدعمـــــي

التدقيق اللغوي

علي لفتة البازي

(1)

سمعت صوت وقع أقدام خلفها في ذلك الزقاق الضيق .. لقد صارت خطوات تلك الأقدام تقترب منها أكثر .. انها ليست خطوات امرأة!

كان المطرُ شديداً وصارت قطراتهُ تتزايد بتزايد دقات قلبها الخائف ..

تساءلت مع نفسها :

هل هذا الشخص الذي يسير خلفي رجل كبير في السن أم شاب في متوسط العمر .. ؟!

أسرعت بخطواتها لعلها تصل الى نهاية ذلك الزقاق حيث المنزل الذي تقصده ، وكلما كانت تُسرع أكثر كان الشخص الذي خلفها يُسرع هو الآخر ..!

كان الوقتُ عصراً لكن الغيوم الكثيفة والمطر الشديد نشرا عُتمةً في الجو، جعلتها تشقُّ طريقها بصعوبة .

وأخيراً جاء الصوت الذي كانت تخشى صاحبهُ :

- عفواً آنستي .. هل أساعدكِ على حمل الحقيبة ؟

وقبل أن تُجيب فدك مدَّ (أسامة) يدهُ نحو حقيبة السفر وحملها بدلاً عنها ، صارَ يمشي بجانبها

لكنها الى الآن لم تره!

أما هو فتحدث قائلاً : أظنكِ تقصدين منزلاً قريباً من منزلي !

لم تُجِبهُ لكنها عرفت من خلال صوتهُ إنهُ شاب في مُقتبل العمر .

سألها وهو ينظر الى تقاسيم وجهها : هل لي أن أعرف اسم صاحبة هذا الوجه الجميل ؟ أدارت وجهها نحوه ، نظرت اليه بِحدّة ثم صفعتهُ وسحبت الحقيبة من يدهِ بقوة راكضةً نحو نهاية الزقاق .

(2)

ظلَّ أسامة مُتسمّراً في مكانه واضعاً يدهُ على خده من ألم الصفعة بينما شقّت فدك طريقها مبتعدةً عنهُ ، وأخيراً وقفت أمام المنزل الذي أتعبها الطريق اليه .. وبيدين مرتجفتين طرقت الباب ، بعد دقائق فتحت لها فتاة تصغرها سناً ومنذ الوهلة الأولى لاحظت الاثنتان الشبه الكبير بينهما

رمت فدك بنفسها على الفتاة الأخرى وهي تبكي وتردد :

- جمانة حبيبتي .. لقد كبرتِ أختاه!

تساءلت جمانة بدهشة :

- عفواً .. ولكن مَن تكوني؟

- أنا أختكِ فدك .

صاحت جمانة ولم تسعها الفرحة :

- أختي الحبيبة فدك ؟

احتضنت احداهما الاخرى واستغرقتا في البكاء .

وهنا وصل أسامة ..

قال وقد أدهشه المنظر :

- ما الذي يحصل يا جمانة لماذا البكاء عزيزتي؟

قادت جمانة أختها الى باحة المنزل وهي تُحدث أسامة بصوتٍ متهدج : انها أختي فدك .. وأخيراً التقيتها يا أسامة.. انظر ما أروعها!

نظر أسامة الى ضيفتهم ثم عاد ليضع يدهُ على خدهِ وهو يتساءل مع نفسهِ بذهول :

هل من المعقول ان الفتاة التي حاولتُ استمالتها قبل قليل هي ابنة خالتي (فدك) ؟!! كيف لم ألاحظ الشبه الكبير بينها وبين جمانة ؟

أما فدك فقد طأطأت رأسها خجلاً حين عرفت هي الأخرى ان الشاب الذي صفعتهُ قبل قليل هو أسامة ابن خالتها سعاد !

(3)

قال أسامة وهو يخلع معطفهُ :

ـ أهلاً بضيفتنا .. خذيها يا جمانة لغرفتكِ لتُغيّر ملابسها فالمطر كان شديداً في الخارج .

في هذهِ الأثناء خرجت سعاد من المطبخ ،وإذ تفاجأت حينما رأت فدك فاحتضنتها بلهفة وهي تردد :

ـ آه يا فتاتي لقد كبرتِ! تركتك ولكِ من العمر سنوات!

ابتسمت فدك وبعيونٍ دامعة قالت :

ـ وأنا الآن ابنة العشرون عاماً .. كنا نذكركِ دائماً انا والخالة ام محمود رحمها الله .

صاحت سعاد : ماذا! وهل ماتت ام محمود؟

أجابت فدك بأسى :

ـ نعم يا خالة .. وهذا هو السبب الذي جعلني أرحل عن المنزل الذي احتضنني لعشر سنواتٍ خلت!

تساءلت سعاد :

ـ ومن بقى في ذلك المنزل؟

ـ محمود فقط .

ثم أكملت فدك وهي تمسح دموعها :

ـ لقد كنت اتمنى ان ابقى معهُ لكنهُ أصرَّ على مجيئي اليكم ، فهو في النهاية ليس اخي!

عادت الابتسامة الى وجهها الملائكي وهي تقول :

ـ لقد وعدني بأنه عندما يتزوج سيأتي الى هنا ويأخذني لأعيش معه هو وزوجته .

ـ اعذريني يا حبيبتي لأنني لم أزركِ بعد أن أخذتُ جمانة بعد وفاة أمكِ (رحمها الله) فالمسافة بين شمال البلاد وجنوبه كالمسافة بين بلدٍ وآخر!

ـ صحيح يا خالتي لقد كنت اشتاق لأختي كثيراً وكانت الخالة أم محمود هي الأخرى تعتذر عن عدم قدرتها لزيارتكم لنفس السبب!

****

لقد ماتت والدة فدك وتركت ابنتيها (فدك وجمانة) بعد ان كان زوجها قد مات قبلها بعامين ..

كانت فدك حينها تبلغ من العمر العاشرة أما جمانة فكانت ابنة الأربع سنوات .

حينها قررت خالتهما سعاد أخذهما معها الى منزلها ليعيشا هناك لكن ابنة عمها (أم محمود) أصرت أن تأخذ احدى البنتين للعيش معها في شمال البلاد حيث لم يكن لها إلا ولدها (محمود)

عاشت فدك في شمال البلاد حياة البساطة والتواضع في مناطق جبلية باردة ..

أما جمانة فعاشت في جنوب البلاد مع خالتها سعاد وزوجها الذي كان ميسور الحال مما جعل جمانة تعيش حياة الرفاهية والغِنى على عكس أختها فدك!

قال أسامة في نفسه وهو يحتسي كوباً من الشاي :

ـ رغم الشبه الكبير بينهما إلا انهما تختلفان في أشياءٍ كثيرة!

وقد قطع سلسلة أفكارهِ صوت والدته وهي تقول :

ـ انظر اليهما .. انهما كالملاكين الطاهرين!

قال أسامة وقد رآهما تدخلان الغرفة وتغلقان الباب خلفهما :

ـ لكن شخصية فدك أجمل بكثير ! أم ماذا تقولين يا أماه؟

قالت الأم بشيء من المزاح الممزوج بالحذر :

ـ لا تقل انك غيّرت رأيك بهذهِ السرعة بخصوص خطبتك لجمانة ؟!

ابتسم أسامة وهو يلاحظ مخاوف والدته قائلاً :

ـ مازال الوقتُ مبكراً للحديث في هذا الموضوع .

(4)

قضى أسامة ليلتهُ تلك بالتفكير في اللقاء الذي جرى بينهُ وبين فدك تحت المطر ، وبالاختلاف الكبير بين الأختين ..

نعم ففدك ورغم الشبه الكبير بينها وبين أختها إلا انها تختلف عنها في أشياء كثيرة ..

احتشامها ، طريقة كلامها ، رزانة وقوة شخصيتها ..

قال مؤنباً نفسه : ولكن ألم تكن حتى الليلة الماضية (جمانة) هي المسيطرة على عواطفي وتفكيري ؟ ما الذي تغير ؟! هل أنا مُتقلب المشاعر الى هذهِ الدرجة ؟ أم ان في فدك سحراً ليس موجوداً في جمانة ؟!!

****

أما الأختان فقد سهرتا تلك الليلة بالحديث عن سنوات الفراق وكيف قضت كل واحدةٍ منهما تلك السنين ؟

قالت فدك :

ـ لقد عاملتني الخالة أم محمود كإنني ابنتها فصار محمود بالنسبة لي الأخ الأكبر الذي احترمهُ كثيراً ، وإني لأتعجب كيف انكِ ورغم كل هذهِ السنين التي عشتِها في بيت خالتي سعاد لم تعتبري ابنها أسامة أخاً لكِ ؟ وكيف لم يعتبركِ هو أختاً له ؟ كيف خطبكِ ووافقتِ؟ هلّا أوضحتِ لي ما لا أستطيع استيعابه!

ضحكت جمانة بدلال ثم قالت :

ـ انكِ مُخطئة يا أختي ..

قالت فدك بتعجب : وما الخطأ في كلامي ؟ أولم تُخبريني بأن أسامة خطيبكِ ؟ أولستما تعيشان معاً منذُ عشرة أعوامٍ مضت!؟

أجابت جمانة وما زالت الابتسامة مرتسمة على مُحيّاها :

ـ نعم انهُ خطيبي .. لكننا لم نعش سوياً كل هذه المدة التي ذكرتِها!

ـ ما تقولين ؟ لم أفهم!

ـ عندما أكمل أسامة دراسته الثانوية قرر عمي ليث ـ زوج خالتي سعاد ـ أن يُرسله الى ألمانيا لإكمال دراسته الجامعية هناك حيث اختار لهُ كلية الهندسة التي كانت رغبتهما معاً أقصد أسامة ووالده .

كنتُ حينها في العاشرة من عمري وهو نفس عمركِ حينما دخلتِ بيت الخالة أم محمود .. صحيح ؟

ـ نعم .. نعم صحيح أكملي!

وبعد أن أكمل أسامة دراسته الجامعية لم يعد الى البلد حيث قرر أن يعمل هناك ضمن مجال إختصاصه .

كنا نتحدث يومياً تقريباً عبر الأنترنت عن طريق الرسائل فقط الى أن طلب مني في إحدى المرات أن أفتح الكاميرا لأنه مشتاق الى رؤيتي حيث كنت بالنسبةِ اليه أخته الصغرى ، حينما فتحت الكاميرا ورآني لأول مرة بعد كل هذه الفترة من سنوات سفره قال لي :

ـ ما شاء الله لقد كبرتِ وأصبحتِ عروساً جميلة !

ومنذ سماعي لكلماتهِ تلك شعرتُ ان هناك شيئاً ما قد نما في داخلي تجاههُ ..

أما هو فقد تغيرت نبرتهُ في الكلام معي كثيراً وصارت تصرفاتهُ توحي لي بأنه لا يُفكر بالارتباط بفتاةٍ غيري .

سألتها فدك بألم :

ـ وهل طلب منكِ مرةً أخرى فتح الكاميرا؟

ـ نعم كثيراً حتى صرتُ أختار أجمل ملابسي وأحاول أن أكون بأبهى حُلّتي عندما أتحدث معهُ .

سألتها فدك :

ـ ومن دون حجاب ؟

أجابت جمانة بتعجب :

ـ أي حجاب ؟ أنه يراني عبر الأنترنت فقط!

(5)

مسحت فدك بأناملها الرقيقة على رأس أختها وهي تقول :

ـ انكِ تجهلين الكثير من الأمور يا حبيبتي ، أسأل الله أن يغفر لي لأني تركتكِ كل هذهِ الفترة ولم أسعَ جاهدةً لزيارتكِ وأكون بالقرب منكِ خاصةً وإنكِ الآن في سنٍ حرج وتحتاجين كثيراً كغيركِ من الفتيات الى من يكون بجانبكِ ليوضح لكِ ما يختلط عليكِ من أمور ..

شعرت جمانة بالحَيرة في داخلها فكلمات أختها تدل على ان هناك الكثير من الأخطاء في تصرفاتها!

عادت فدك للحديث :

ـ عندما رأيتكِ لأول وهلة من غير حجاب أمام أسامة ظننتكِ كأغلبية الفتيات والنساء في أيامنا هذهِ عندما يتحججن بأنهُ : مثلُ أخي ! رغم ان ديننا ليس في قاموس مصطلحاتهِ شيء اسمه (مثلُ أخي)!!

ثم عندما سألتكِ لأتأكد من سبب عدم ارتدائكِ للحجاب أمامهُ قلتِ لي بأنهُ خطيبكِ .. صحيح؟

ـ نعم فعلاً ..

أرادت جمانة أن تُكمل لكن فدك سبقتها بالقول :

ـ وظهر لي الآن انكِ كنتِ سافرةً أمامهُ حتى وهو يراكِ عبر الأنترنت ! في حين انك يجب أن تتحجبي عنهُ وعن والدهُ في عمر التاسعة أي حتى قبل سفرهِ لألمانيا !

قالت جُمانة بذهول : ماذا ؟ ولكني كنتُ صغيرة جداً حينها!

قالت فدك وعادت لتمسح بأناملها شعر أختها الصغرى :

ـ في الاسلام يجب أن تلتزم الفتاة بالحجاب والصلاة بعد إكمالها تسع سنوات قمرية (أي يتم حساب عمرها عن طريق تأريخ ميلادها الهجري وليس الميلادي)

ـ ولكن من يعرف تأريخ ميلاده الهجري ؟ ففي بلدنا (الميلادي) هو المعمول بهِ كما تعلمين!

ـ في منتهى السهولة ! فقط اكتبي في محرك البحث في الأنترنت عبارة (تحويل التأريخ الميلادي الى هجري) وسترين عشرات البرامج التي تساعدكِ في العثور على تأريخ ميلادكِ الهجري بالضبط!

ـ ولكن كيف ؟

ـ فقط تكتبي تأريخ مولدكِ (الميلادي) باليوم والشهر والسنة في الأماكن التي يخصصها لكِ ذلك البرنامج وسيتم تحديد ميلادكِ الهجري يا حبيبتي!

ـ بهذهِ السهولة ؟

ـ نعم وبهذا يُمكن للكثير من العوائل المسلمة أن تعرف الموعد المضبوط لدخول فتياتها سن التكليف الشرعي .

ـ وماذا يعني هذا المصطلح؟

ـ سن التكليف الشرعي يعني ان الفتاة قد أكملت تسع سنوات قمرية وعندها يجب أن تلتزم بحجابها وصلاتها وصيامها وكل الفرائض التي أوجبها الله على المرأة .

سألت جمانة بدهشة :

ـ حتى وان لم تكن تلك الفتاة قد رأت العادة الشهرية ؟

ـ نعم يا عزيزتي وللأسف ان أكثر عوائلنا تظن ان البنت تبلغ سن التكليف الشرعي عندما ترى العادة الشهرية ، في حين ان رسولنا الكريم (صلى الله عليه وآله) وكذلك أهل بيتهِ الكرام (عليهم السلام) قد أوضحوا لنا كل شيء في هذا المجال من خلال أحاديثهم ورواياتهم الشريفة .

لاحظت فدك بعد هذا الحديث وكأن جمانة صارت تسبح بأفكارها في عالمٍ آخر!

وعند ذلك سألتها بفضول :

ـ ولكن بِمَ تُفكرين الآن ؟ نظرت إليها جمانة بعيونٍ دامعة وهي تقول :

ـ هل كل هذا أخبرتكِ بهِ أمي ؟!

ـ دمعت عينا فدك هي الأخرى عندما سمعت لفظة (أمي) لأول مرة على لسان أختها الصغرى!

قالت وهي تمسح دموع أختها :

ـ عندما ماتت أمنا (رحمها الله) كنتُ أنا في العاشرة كما تعلمين وكل هذا أفهمتني بهِ ما أن أكملتُ التاسعة .

ـ علّمتكِ كل شيء وتركتني أنا لا أعرف شيئاً!!

ضمّت جمانة وجهها الملائكي بين كفيها وصارت تبكي كمن ماتت أمها اليوم!

أبعدت فدك كفي جمانة عن وجهها بلمسةٍ حانية ثم ضمتها الى حضنها وهي تردد :

ـ كان ذلك قضاء الله سبحانهُ وتعالى ، ويجب أن لا نعترض على قضائهِ أبداً .

ثم ها هو سبحانهُ يُرسلني اليكِ ويُقرّب بيننا من جديد ..

ألا ترين في وجهي وجه أمي ؟!

(6)

أضافت فدك وهي تحاول أن تُغيّر الموضوع بعد أن رأت أن قلب جمانة قد امتلأ بالحزن والكآبة :

ـ والآن حدثيني عن مشاعر باقي أفراد العائلة تجاهكِ .. كيف هو تعاملهم معكِ طوال هذهِ السنوات ؟

قالت جمانة وقد أفتر ثغرها عن ابتسامةٍ جميلة :

ـ انهم يحبونني كثيراً ، خالتي سعاد وعمي ليث كانا لي بمثابة الأم والأب العطوفَين لم يفّرقا بيني وبين ابنتهم (منى) على الاطلاق .

ـ صحيح .. وأين منى الآن لم أرها منذ مجيئي؟

ـ انها في بيت زوجها .. لقد تزوجت منذُ ثلاث سنوات ولكنها لم تُرزق بالأطفال حتى الآن .

ـ وهل هي سعيدة مع زوجها ؟

ـ أوه .. ظافر ؟ انهُ يُعاملها مُعاملة سيئة .. يشتمها ويسبّها وقد يضربها ويقوم بإهانتها أيضاً .

ـ يضربها ؟! ولماذا ؟

ـ لا أحد يعرف السبب!

ـ قد يكون بسبب عدم وجود الأطفال في حياتهم ؟

ـ لكن ان كان الله سبحانه لم يرزقهم بالذرية الى الآن ، فما ذنبها هي ؟

لطالما حاولَت اقناعه بالسفر خارج البلاد لعلَّ الله يجعل أحد الأطباء هناك سبباً في ايجاد العلاج المناسب لحالتهما بعد أن عجز الأطباء هنا عن ذلك ، لكنهُ كان يرفض متعللاً بأنه لا يريد أطفالاً أصلاً!

ـ قد تكون حالتهُ الماديّة هي السبب في رفضهِ لفكرة السفر ؟

ـ بالعكس .. انه ميسور الحال والحمد لله .

ـ لقد أحزنتني أخبارها كثيراً ، كان الله في عونها

ـ آه يا فدك لو ترينها .. انها طيبة القلب ، رقيقة المشاعر ، تحب ذكر (الله) كثيراً تقول انه أقرب اليها من أمها وأبيها !

أفكر دائماً لماذا يحدث هذا معها ؟ فهي لا تستحق زوجاً كظافر على الاطلاق!

ـ ان المؤمن مُبتلى يا حبيبتي كما تؤكد لنا أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولقد جاء في الحديث القدسي قولهُ تعالى مخاطباً عبدهُ المؤمن :

(يا عبدي لو كنتَ على قمةِ جبلٍ لأرسلتُ اليك من يؤذيك) !

ووجود رجل مثل ظافر في حياتها ما هو الا ابتلاء الهي ليعرف مدى صبرها وإيمانها وتسليمها لهُ سبحانه .

- ولكن الله يعلم كل شيء عن عبادهِ (درجة ايمانهم ويقينهم ، قدرتهم على الصبر ، مقدار تسليمهم لقضاءهِ وقدرهِ) فلماذا يختبرهم هكذا ؟

- صحيح ان الله يعلم كل شيء عن عبدهِ لكن لا يمكن ان يحاسبه دون وجود عمل أو فعل فهذا يُنافي عدل الله سبحانهُ وتعالى!

كذلك ان العقل والمنطق يرفضان محاسبة الفرد حسب نيّته أو استعداده النفسي والروحي دون تطبيق فعلي لتلك النيّة وعمل حثيث لذلك الاستعداد سواء كان خيراً أو شر ..

وبذلك عرفنا ان العدل الإلهي وكذلك العقل والمنطق جميعها ترفض محاسبة الانسان دون وجود عمل حقيقي او اختبار فعلي يُظهر نيتهُ الحقيقية وما يضمرهُ في داخلهِ من إيمانٍ وتسليم أم كفرٍ وإلحاد ..

لذلك ايضاً كانت هذه الدنيا محل ودار اختبار وابتلاء ليظهر الإيمان الحقيقي للعبد من خلال صبرهِ على تلك الابتلاءات ..

قال تعالى (أحسِب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) .

وقال تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يمِيزَ الخبيثَ من الطيب) .

وحتى صار الصبر من الإيمان بمثابة الرأس من الجسد ، فكما لا يُمكن أن يعيش الجسد بلا رأس لذلك لا يمكن أن يكون هناك إيمان بلا صبر!

وذلك قول الإمام علي عليه السلام :

(ألا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد) ثم رفع صوتهُ بالقول (ألا لا إيمان لمن لا صبر له)

وفي هذه الخصلة بالذات جاءت آيات وأحاديث كثيرة أذكر لكِ منها :

قال تعالى :

(واصبر فإن الله لا يُضيع أجر المحسنين)

وقال عز وجل (والله يحب الصابرين)

وكذلك قولهُ (إن الله مع الصابرين)

وقولهُ ايضاً (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)

وعليكِ أن تعرفي عزيزتي ان عواقب الصبر جميلة ففي الدنيا يأتيكِ الفرج بعد نجاحكِ بالإختبار الإلهي وفي الآخرة فإنَّ لكِ الثواب الجزيل (أولئك يُجزَون الغُرفة ـ الجنة ـ بما صبروا ويُلقّون فيها تحيةً وسلاما)

ولله در الشاعر حين قال :

اني رأيتُ وفي الأيامِ تجربةٌ

للصبرِ عاقبةٌ محمودةُ الأثرِ

وقلَّ من جدَّ في أمرٍ يحاولهُ

واستصحب الصبر إلا فاز بالظفرِ

وقال آخر :

الصبرُ مثل اسمهِ مر المذاقِ

لكنْ عواقبهُ أحلى من العسلِ!

(7)

ظلَّ أسامة يتحيّن الفرص لمعرفة رأي ابنة خالتهُ (فدك) بهِ وخاصة بعد ذلك الموقف المُحرج الذي جمعهما في أول لقاء بينهما!

ففي إحدى الليالي وبعد تناولهم لوجبة العشاء سمع أسامة صوت في المطبخ أطل ببصره نحو صالة الجلوس فرأى والدته تتبادل الحديث مع جمانة .. إذاً من في المطبخ؟

قال في نفسهِ : حتماً انها فدك!

مشى نحو المطبخ ونظر الى الداخل فرأها تغسل الأطباق .. دخل وبصوتٍ مسموع ألقى التحية .

أحست فدك بالرعشة تسري في جميع بدنها .. ردّت التحية بارتباكٍ واضح!

قال أسامة وهو يسحب أحد الكراسي التي تحيط بطاولة صغيرة مستديرة : لم يمر على تواجدكِ بيننا سوى اسبوع واحد فكيف يدَعوكِ تعملين وحدكِ في المطبخ ؟!

اجابت فدك بعد أن حاولت جمع قِواها :

ـ لم أدخل البيت كضيفة بل أنا ابنة هذه العائلة ان شاء الله .. وهذا يعني انني الآن أختك يا أسامة .

اتسعت حدقتا عينيه فهو لم يكن ينتظر منها هذا الجواب!

تحدث مع نفسه : أختي ؟! أراها أغلقت الموضوع الذي أريد الحديث عنه .. يا لها من ذكية فلقد أغلقتهُ قبل أن أفتحُه!

فكّر هُنيهة ثم عاد للحديث :

ـ بما انكِ الآن بمثابة الأخت بالنسبة لي اذاً كان عليَّ لِزاماً أن أعتذر عن ذلك الموقف السخيف الذي صدر مني ذلك اليوم عند منتصف الزقاق ..

قالت وهي تبتلع ريقها ولم تزل منشغلة بغسل الأواني :

ـ لا داعي لتذكيري بذلك اليوم ، أحاول نسيان ما جرى ..

ـ هل أخبرتِ جمانة عن كلماتي تلك ؟

ـ لا

ـ وهل ستسامحيني أم لا ؟

ـ سامحتك مُذ عرفتُ انك ابن خالتي!

ـ وما هي نظرتكِ عني الآن ؟ أقصد حتماً انكِ تعتبريني انسان وقح .. أليس كذلك؟

ـ لا لا أبداً ..

ـ ان لم أكن وقحاً معكِ حينها فما كانت تلك الصفعة

القوية إذن؟

إحمرّت وجنتاها خجلاً فلم تكن تتوقع انه سيذكر أمامها تلك الصفعة!

قالت في نفسها : أراهُ سيتمادى في حديثهِ هذا وكأنهُ يحتاج الى صفعةٍ أخرى!

فقرَرَتْ ان تُنهي الحديث بطريقتها الخاصة ..

جففت يديها واقتربت من أحد الكراسي ثم سحبته وجلست ، كان أسامة ينظر اليها بحذر فهو يشعر بأن جلوسها هذا وراءهُ كلمات قاسية كصفعتها تلك!

تنفست الصعداء ثم قالت :

ـ بما انك فتحت موضوع (الصفعة) سأسألك وأرجو الاجابة بصراحة :

هل تسمح لأي شاب أن يخاطب أختك بكلمات غزل كما فعلتَ يومها؟

قال أسامة فاهماً قصدها : طبعاً لا!

ـ لماذا إذاً تقبلون لأنفسكم التحرش بالنساء ولا تقبلوا لباقي الرجال فعل ذلك مع أخواتكم او بناتكم او نسائكم ؟

فصمت أسامة دون جواب ..

ـ اسمع يا أخي ما تفعلهُ بأعراض الناس سيفعلهُ أحدهم بعرضك في المستقبل ان لم تتب وتستغفر الله .

وهذا قول أمير المؤمنين علي (عليه السلام) حيث يقول :

(كما تُدين تُدان) و (من دقَّ باب الناس دُقّت بابه) !!

وأردفت وهي تهم بالقيام : وفوق ذلك تريدون من أخواتكم وبناتكم ونسائكم أن يكُنَّ كزينبَ عليها السلام وباقي نساء العترة الطاهرة .. ملتزمات وقورات وشريفات ، أما أنتم فلكم مطلق الحرية في تصرفاتكم!

يا أخي كن أنت كالعباس ستجدها مثلَ زينب .

(8)

عاد اجتماع الأختين ليلاً في غرفتهما الخاصة بهما وكما في كل ليلة تبقى الفتاتان تتسامران حتى وقت متأخر من الليل ، وكأنهما تعوضان بذلك كل سنين البُعد والفراق التي أخذت من حياتهما الكثير من اللحظات الجميلة .

قالت جمانة :

ـ أتمنى أن تُحدثيني أكثر عن والدتنا يا فدك .

تساءلت فدك :

ـ وعن ماذا بالضبط تريديني أن أتحدث ؟

ـ عن شخصيتها وإيمانها ، عن أمنياتها وتطلعاتها .. فأنا لا أتذكر منها الا الشيء القليل ، وخاصة في السنة الأخيرة قبل مرضها إذ ذلك كنا نذهب معها الى الحلقات الدراسية حيث دروس الفقه والقرآن ..

بكت فدك وهي تقول :

ـ الى الآن أحتفظ بتلك الكراسات التي كانت تدوّن فيها ملاحظاتها عن تلك الدروس ..

قالت جمانة بتوسل :

ـ حبَّذا لو تريني تلك الكراسات .. اريد رؤية خطها!

قامت فدك من مكانها وفتحت حقيبة متوسطة الحجم لتستخرج منها مجموعة من تلك الكراسات ، ناولتها لجمانة التي أخذتها بيدين مرتجفتين ثم صارت تُقلب صفحاتها من غير أن تستطيع مقاومة دموعها!

قالت وهي تُمرر أناملها على تلك الأوراق :

ـ ما أجمل خطها!

ثم أكملت والعبرة تخنقها :

ـ سأقرأ جميع هذه الكراسات وستساعديني على فهم ما جاء فيها من مصطلحات .. أليس كذلك ؟

هزت فدك رأسها بالايجاب وبفرحٍ غامر أجابتها :

ـ حتماً حبيبتي .. على الرحب والسعة .

أغلقت جمانة الكراس الذي بيدها ووضعته مع بقية الكراسات جانباً ثم قالت :

- والآن .. حدثيني عنها .

قالت فدك وهي تمسح دموعها :

- كانت أمنا كثيراً ما تتحدث عن أهل بيت العترة (عليهم السلام) وكانت تتذكر مصائبهم فتهون عليها مصائبها ، وخاصة مصائب الزهراء (عليها السلام) حيث كانت كلما تذكرها تغصُّ بعبراتها ، وعندما تشعر بأنها مظلومة تتنهد وتقول :

- انا امرأة من عوام الناس ، ايماني متواضع لكني عندما أستشعر الظلم من الذين حولي يحترق قلبي وأشعر بالدم يغلي في عروقي فكيف بسيدة نساء العالمين ؟ ماذا قال قلبها عندما ظُلِمت هي وبعلها أمير المؤمنين وأولادها من بعدها عليهم صلوات ربي أجمعين ؟

قالت جمانة وقد صارت تنظر الى ماضي والدتها

- هل كانت تحبها الى هذه الدرجة ؟

- ان الزهراء (عليها السلام) كانت لأمي هي الأخت والأم والصديقة والقدوة الرائعة .

حتى في مرضها كانت أمي دائمة الذكر لها حيث كانت تتألم وتقول :

- ساعدكِ الله يا زهراء ! الآمي قليلة بالنسبة لالآم صدركِ وأضلاعكِ المكسورة!

وعندما انتقلت أمي الى مثواها الأخير توسلتُ بالزهراء عليها السلام أن تكن معها وتنقلها بشفاعتها من ضيق القبر الى أعالي الجنان حيث كنت أردد بحُرقة :

- يا زهراء .. أمي لم تنساكِ في حياتها فلا تنسيها في مماتها .. أدركي أمي يا زهراء .

(9)

وأخيراً التقت فدك بإبنة خالتها (منى)

كانت منى كما وصفتها جُمانة بالضبط ، لذلك شعرت فدك ومنذ اللحظة الأولى بانجذاب شديد لها ، دخل أسامة الى صالة الجلوس ورحَّبَ هو الآخر بقدوم أخته الوحيدة ، قال لها وهو يهمُّ بالجلوس على الأريكة المقابلة لها :

ـ كيف هو حال زوجكِ ظافر ؟

قطبت منى حاجبيها بما ينمُّ عن الاستياء قائلةً :

ـ ما زال على حالهِ ..

لم تستطع أن تُكمل فلقد خانتها دموعها ونزلت بالرغم من محاولتها الحثيثة في اخفائها !

قال أسامة بعصبية :

ـ هل ما زال يضربكِ ؟ ألم يعاهدني في زيارتي الأخيرة لكما على أن لا يمدَّ يدهُ نحوكِ بسوء مرةً أخرى ؟

قالت وهي تمسح دموعها :

ـ أرجوك يا أسامة اترك هذا الموضوع الآن ، أنا آتي لزيارتكم حتى أنسى همومي وأوجاعي فلا تذكرني بها أرجوك .

أحسّت فدك بأن منى انسانةً مظلومة لا حول لها ولا قوة وانها كشخصٍ حُكِمَ عليه بالسجن المؤبد فلا أمل لهُ بالخلاص منه !!

قالت فدك بعد بُرهة :

ـ ما رأيكم أن نخرج جميعاً في نزهة الى احدى الحدائق والمتنزهات ، أشعر بأننا جميعاً بحاجة الى تغيير الجو ..

راقت الفكرة للجميع وبالخصوص لمنى التي كانت فعلاً بحاجة ـ وكما وصفت فدك ـ الى تغيير الجو بعد أن اختنقت من أجواء منزلها الممتلئ بالمشاكل والهموم .

قال أسامة :

ـ أعرف مدينةً للألعاب لم تُفتح إلا قبل أيام .. أخبرني صديقٌ لي بأن حدائقها وألعابها وباقي خدماتها راقية جداً .. ما رأيكنَّ بالذهاب اليها عصر هذا اليوم ؟

راقت الفكرة للثلاثة وركضت جمانة من فورها الى غرفتها وهي تُردد : العاب العاب .. سأهيء ملابسي منذ الآن !

شعرت فدك بالخجل فأختها مازالت تتصرف كالأطفال رغم انها أكملت الخمسة عشر عاماً !!

ضحك أسامة من كل قلبه وهو يلاحظ الخجل الذي بدى واضحاً على وجه فدك .. فقال مازحاً :

ـ أروع شيء في جمانة ان لها روحاً طفولية، ولا تريد أن تكبُر أبداً .

أيدتهُ منى بالقول :

ـ أدعو الله أن تبقى روحها شفافة كالفراشة الجميلة تنثر السعادة أينما حلَّت وأن لا يُعكّر صفو حياتها شيء على الاطلاق .

قالت فدك وكذلك أسامة : آمين يا رب .

****

في مدينة الألعاب كان كل شيء جميل ورائع كما ذكر أسامة بالضبط ..

صار الأربعة يتنقلون من لُعبةٍ الى أخرى بفرحٍ غامر ، حاول أسامة أن يُشعرهن بالسعادة ، وكانت عينهُ تراقب فدك باستمرار ، وقد لاحظت هي ذلك ..

وحاولت مراتٍ عدةٍ أن تتهرب من نظراتهِ لكنها فشلت!

قالت جمانة : لم تبقَ إلا السفينة!

ثم أكملت بلهفة : هيا بنا لنصعد اليها جميعاً ..

اعتذرت فدك عن الصعود بينما رحبت منى بالفكرة ..

قالت فدك : أشعر بالدوار ، اذهبوا أنتم وسأبقى أنا هنا انتظركم ..

ذهب الثلاثة وما هي إلا لحظات حتى تفاجأت فدك بعودة أسامة لوحده!

زادت دقات قلبها فلقد شعرت بأنه يحاول الانفراد بها ..

قال وهو يفترش العشب قريباً منها :

ـ لم أشأ تركِكِ لوحدكِ فالشباب يملأون المكان .

لم تجب فدك لكنها أخرجت هاتفها وحاولت اشغال نفسها بالنظر الى الصور التي التقطتها أثناء نزهتهم هذه ..

وما كان من أسامة إلا أن أخرج هاتفهُ هو الآخر لكنهُ لم يذهب إلى ألبوم الصور كما فعلت هي بل اتجه الى ألبوم الأغاني ..

سمعت فدك صوت اغنيةٍ ما وبنظرة خاطفة لاحظت نظرات أسامة الثاقبة نحوها!

أشارت إليه وطلبت منه أن يُغلِق هاتفه ، لبّى طلبها وأرجع الهاتف الى جيبهِ وانتظر منها أن تقول شيئاً..

قالت : هل تعلم ان الغناء من المحرَّمات ؟

قال أسامة وكأنهُ كان ينتظر منها هذا السؤال :

- نعم أعرف !

- إذن ما الذي يجبرك على سماعهِ ؟!

أجاب بعد أن أطلق حسرةً طويلةً :

- الدُنيا

- الدُنيا! ألم تسمع ما قاله الامام علي (عليه السلام) عنها ؟

- لا .. لا أدري .. ماذا قال ؟

لقد أكثر (عليه السلام) التحذيرَ من الدنيا الخدّاعة فكانت لهُ أقوالاً وحِكمَ كثيرةً في ذلك وحتى ان هناك أشعاراً نُسبت اليه عليه صلوات ربي لِما فيها من عِبَر ومواعظ رائعة لو عملنا بها جميعاً لما إغترَّ أحدٌ بهذه الدنيا الزائلة ..

قال أسامة باهتمام :

- حسناً .. هاتِ ما لديكِ !

قالت فدك وقد شدَّها اهتمامهُ بالموضوع :

- بمن أبدأ ؟ بالأقوال أم الأشعار ؟

قال أسامة بدهشة ممزوجة بالإعجاب :

- أوَتحفظينها كُلَّها!!؟

- لا طبعاً !

- حسناً .. ابدأي بما تحفظيه من أقوال

- قال الإمام علي عليه السلام عن الدنيا :(الدنيا حُلم والآخرة يقظة ونحن بينهما أضغاثُ أحلام)

وهنا يريد عليه صلوات ربي أن يُنبهنا ان حال الدنيا كحال الحُلم الذي ستستيقظ منه شئت ذلك أم أبيت!

وان الآخرة هي حالة اليقظة الحقيقية التي سنعيشها جميعاً بعد هذا الحلم!

وفي نفس هذا المعنى يقول أيضاً (الناس نيّام فإذا ماتوا انتبهوا) !!

فكمن ينتبه من نومهِ سينتبه الناس الى أنهم كانوا في غفلة اسمها (الدنيا) ولم يثوبوا إلى رُشدهم إلا بعد فوات الأوان!!

طبعاً هذا حال أكثر الناس ، لكن المؤمنين يكونوا على العكس من ذلك فهم في حذر وعلى معرفةٍ مُسبقةٍ بحال هذه الدنيا التي مهما حاولت استدراجهم وايقاعهم في حبائلها لن تستطيع ذلك ، لأنهم يعرفون انها ليست إلا دار غفلة وزوال .. وقال عليه السلام :

(الدنيا مزرعة ابليس ، والناس حرّاثونَ فيها)

وأيضاً (مَن عَرِفَ الدنيا لم يحزن للبلوى)

أما ما نُسِبَ اليه (عليه السلام) من أشعارٍ عنها فقولهُ :

يا خاطب الدنيا الدنيَّة إنها ..

شَرَكُ الردى وقرارةُ الأكدارِ

دارٌ متى ما أضحكت في يومها

أبكت غداً ، تباً لها من دارِ

وقال أيضاً :

طَلِّق الدنيا ثلاثاً .. اطلبن زوجاً سواها

انها زوجةُ سوءٍ .. لا تُبالي مَن أتاها

وإذا نالت مُناها .. مِنكَ ولَّتكَ قفاها!

(10)

في المساء وبعد تلك النزهة الجميلة عاد اجتماع العائلة في صالة المنزل ، قالت سعاد لأسامة وهي تُقدم له كوب الشاي :

ـ ها أنا أراهُنَّ في غاية السعادة بعد عودتكم من تلك النزهة أما أنت فلا أرى حالك على ما يُرام .. هل حدث ما أزعجك ؟

قال أسامة وهو يمد يده لأخذ الكوب من والدته :

ـ لا بالعكس .. كان كل شيء على ما يُرام .

ـ اذاً لماذا كل هذا الحزن ؟

ـ صدّقيني يا أماه لا شيء على الاطلاق .

ـ حسناً سأصدقك لكن .. على مَضَض!

ابتسم أسامة ابتسامة فاتِرة ثم قام فجأة ليدخل المطبخ خلف فدك .. وهناك دار هذا الحديث بينهما :

ـ هل لي بسؤال من فضلكِ ؟

ـ نعم .. تفضل !

ـ كيف يُمكن للانسان أن يتوقف عن المعاصي ؟

ابتسمت فدك وهي تُغلق باب الثلاجة بعد أن وضعت فيها ما بقي من طعام العشاء :

ـ يُمكن ذلك عندما يستشعر وجود الله فيستحي أن يُذنب في حضرته !

ـ ولكن كيف ؟ ارجو التوضيح أكثر ؟

ـ اليك هذه القصة الرائعة التي حصلت في زمن إمامنا موسى الكاظم (عليه السلام) عن رجل اسمهُ بِشر والذي صار يُلقب بعد هذه القصة بلقب (بِشر الحافي)

ابتسم أسامة وبنبرة التعجب قال :

ـ بشر الحافي ؟ يالهُ من لقبٍ غريب! أرجو سرد قصته فكُلّي شوق لسماعها .

قالت فدك وقد صارت تطمئنُ أكثر للحديث مع أسامة :

ـ كان (بِشر) رجل لا يعرف غير المعازف والطرب وجلسات اللهو والحرام !

ففي احدى الليالي وبينما جاريته تُلقي ما بقي من مائدة طعام سيدها خارج البيت مرَّ إمامنا الكاظم عليه السلام ودار بينهما هذا الحديث الذي قلب حياة بِشر بشكل جذري!

- ما الذي تفعلينه يا جارية ؟

- أرمي ما بقي من طعام سيدي وأصحابه بعد أن فرغوا من تناول وجبة العشاء ..

وفي أثناء حديثهما ذلك كانت أصوات الصخب والطرب تعلو من المنزل ..

فسألها الامام الكاظم عليه السلام :

- وسيدُكِ هذا حرٌ أم عبد ؟

ردّت بتعجب :

- انهُ حُر طبعاً!

فردَّ امامُنا الكاظم (عليه السلام) :

- صدقتِ والله .. فلو كان عبداً لاستحى من مولاه!

عادت الجارية الى المنزل فسألها بشر عن سبب تأخرها فقالت والذهول بادياً على وجهها :

- لقد مرَّ بي رجلاً تبدو عليهِ سيماء الصالحين وسألني ان كان سيدي حراً أم عبداً ؟ فأجبته انه حرٌ! فقال : صدقتِ والله .. فلو كان عبداً لإستحى من مولاه!

هزّت هذهِ الكلمات بِشراً من الأعماق ، فركض الى خارج المنزل وهو يُردِّد : انهُ والله موسى الكاظم !

لحق بِشر امامهُ الكاظم وهو حافي القدمين دامع العينين ، وما أن أدركهُ حتى وقع على قدميه الشريفتين يقبلهما ويقول:

- هل من توبة يا سيدي ؟

حينها ما كان من الامام الكاظم عليه السلام إلا أن رحّبَ بهِ وبتوبتهِ الخالصة بعد أن عرف صدق نيّتهِ في تلك التوبة ، فأمرهُ ان يعقد النيّة على عدم الرجوع الى تلك المعاصي والآثام وأن يلتحق بصفوف المؤمنين المُخلِصين في نيّاتهم وأعمالهم ، لينال بذلك خير الدنيا والآخرة .. كما وأمره أن يتطهر من كل آثار الحرام سواء في روحهِ أو جسدهِ وحتى في ملبسهِ ومسكنهِ !

سألهُ بِشرٌ حينها : وهل سيرضى الله عني ؟

فطمأنهُ الإمام بأن الله ليس فقط سيرضى عنه بل سيحبهُ وذلك قولُهُ تعالى (ان الله يُحِبُّ التوابين ويُحِبُّ المتطهرين)

عاد بِشرٌ حافي القدمين كما خرج لكن قلبه وروحه لم تكونا كما ساعة خروجهِ أبداً ، فلقد عاد بقلبٍ مليء بالإيمان وروحٍ مُفعمةٍ باليقين .

عاد ليُقرِّر بِدءَ حياته من جديد بعد أن تخلص من كل ما كان يُدنس بيته من الخمر والمعازف والنساء الغواني ومن أصدقاء السوء ..

فتح بِشر بيته من جديد لكن هذه المرة لطلاب العلم والفضيلة وكان ذلك بعد أن أصبح من أبرز طُلاب مدرسة الامام الكاظم عليه السلام ومن أشهر العلماء والزُهاد في ذلك العصر !

قال أسامة بفضول :

ـ لماذا اذاً أصبح لقبهُ الحافي ؟

ابتسمت فدك وهي تقول :

ـ لأن بِشراً لم يرتدِ نعلاً بعد لقاءه بإمامهِ الكاظم (عليه السلام) على الاطلاق !

نعم فلقد قرر بشرٌ أن يبقى حافياً الى آخر عمره استذكاراً منه لذلك اللقاء المبارك ، وحتى لا ينسى أبداً تلك اللحظة التي قلبَ اللهُ فيها حالَهُ من الضلالةِ والعمى الى الهدايةِ والصلاح .

(11)

في احدى الجلسات العائلية سأل ابو أسامة فدك قائلاً :

ـ يُحيرني اسمكِ كثيراً ! اتمنى معرفة معناه من فضلك ؟

قالت فدك وهي توَّزع نظراتها بين الجميع :

ـ أتمنى أن يجيبك أحدٌ غيري يا عماه !

لم تلقَ جواباً واضحاً من أي أحد فكانت الحيرة واضحة على أعينهم جميعاً!

قالت بذهول :

ـ ألا يعرف أحد بينكم معنى اسمي ؟

هزت سعاد وكذلك جمانة رأسيهما بالنفي !

أما أسامة فقال :

ـ سؤاله هذا هو عينهُ سؤالي الذي كنت أريد طرحهُ عليكِ في أقرب فرصة لكن والدي سبقني!

قالت فدك :

ـ ان لهذا الاسم قصة طويلة اختلفت فيها طوائف المسلمين بين من يُصدقها وبين من يُكذبها جملةً وتفصيلا !

قالت سُعاد : ولكن ما هي هذه القصة ؟ إحكِها لنا حتى لو كانت طويلة .

ابتسمت فدك وهي تقول :

ـ في الخدمة يا خالتي .. نبدأعلى بركة الله .

فدك اسم لأرض وهبها رسول الله (صلى الله عليه وآله) لابنته الصدّيقة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في حياتهِ الشريفة ..

وبعد ان انتقل رسول الله الى الرفيق الأعلى ادّعى من أخذ مكانهُ في الحُكم بأن الأنبياء لا يوَرِثّون !!

وبذلك اغتصبوا حق الزهراء (عليها السلام) في أرضها "فدك" التي كانت تخصص ثمارها للفقراء والمساكين ..

هذا ما جعل الصدّيقة تتألم وتخرج للمطالبة بحقها في هذه الأرض ليس لأنها تحب الدنيا كما يصفها البعض ممن سوّلت لهم أنفسهم بل لأن هذه الأرض الزراعية كانت ملاذاً للكثير من الجيّاع والفقراء والأيتام الذين لم يكن لهم حتى قوت يومهم !

خرجت الزهراء وخطبت خطبتها " الفدكية " المعروفة ـ وهي بكامل حجابها وسترها ـ أمام من ادعى ان ليس لها حق في ارث والدها النبي محمد (ﷺ)

قال ابو أسامة بشيء من العصبية :

ـ وهل تريديني أن أصدق بأن الزهراء تُظلم الى هذهِ الدرجة فيسكت زوجها علي عليه السلام ويتركها تخرج بنفسها لتطالب بحقها!!!

ثم أكمل والشرر يتطاير من عينيه :

ـ نحن رجال عاديين تمنعنا غيرتنا أن نترك نساءنا تخرج لوحدها لتطالب بحقها فكيف بأمير المؤمنين وخاتم الأوصياء يدع زوجته تقف أمام الرجال بهذه الطريقة ويسمع صوتها كل من في المسجد!!

قالت فدك :

ـ ولكن يا عم! ألم تخطب ابنتها " زينب " في المسجد الأموي وبحضور إمام زمانها علي السجاد عليه السلام ؟!

وهو نفس الشيء الذي فعلته الزهراء حين خطبت في المسجد النبوي بحضور إمام زمانها علي بن ابي طالب عليه السلام .

انهما بذلك توصلان رسالة الى المجتمع الذي ينظر الى المرأة على انها مجرد مخلوقة ضعيفة لا تقوى إلا على أعمال المنزل!!

فها هي سيدة نساء العالمين تخرج وسط الجموع وتخطب خطبة طويلة تُطالب فيها بحق زوجها في الخلافة وبحقها في إرث والدها النبي!

وها هي ابنتها زينب الكبرى تفعل الشيء نفسه بعد استشهاد أخيها الحسين عليه السلام فتخطب خطبتين بدل الواحدة! الأولى في الكوفة أمام اللعين عبيد الله بن زياد ، والثانية في الشام أمام الطاغية يزيد وفي الخطبتين كان ابن أخيها وإمامها علي بن الحسين (عليه السلام) حاضراً ، هكذا هم رجال أهل البيت عليهم السلام يُكبِرون دور المرأة ولا يستصغرون شأنها على الاطلاق على عكس ما يفعله رجال اليوم ممن يتصنعون المدنية ويدّعون الثقافة والتطور ، في حين ان نظرتهم للمرأة لا تتعدى نظرة أهل الجاهلية لها بل وقد تكون عند بعضهم أسوأ من ذلك مع الأسف الشديد!

(12)

سأل أبو أسامة :

ـ وهل تحفظين شيئا من الخطبة الفدكية ؟

أجابت فدك :

ـ نعم وخاصة ما يتعلق بأرض (فدك) .

قال أسامة :

ـ عجيب ! وهل هناك أمر آخر تناولته الزهراء في خطبتها غير أمر أرضها فدك ؟!

ـ نعم لقد تطرقت عليها السلام الى أمور كثيرة منها دور والدها رسول الله (ﷺ) في انقاذ الأمة من الظلمات وإخراجهم الى النور المتمثل بدين التوحيد ، ومن ثم تطرقت الى فضل زوجها علي بن ابي طالب (عليه السلام) وقضية ابعاده عن الخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة .. !

ولم تكن خطبتها تلك مجرد خطبةٍ للمطالبة بحقها وحق زوجها او بيان فضل والدها فحسب، بل انها كانت خطبة شاملة وعامة لفتت انتباه المسلمين حتى الى العلة والحكمة من تشريع الأعمال العبادية والواجبات الشرعية كالصلاة والصيام والحج والزكاة وغير ذلك .

قال أبو أسامة :

ـ لقد شَوَّقتِنا بكلماتك هذه لسماع ما حفظتِه من الخطبة الفدكية تلك فابدأي على بركة الله يا ابنتي .

استنجدت بطلتنا بالسيدة الزهراء عليها السلام في نفسها إذ خاطبتها بالقول (أدركيني يا زهراء) ثم بدأت بالبسملة والقول :

روى عبد الله بن الحسن عليه السلام باسناده عن آبائه انه لما أزمعَ أبو بكر على منع فاطمة فدكاً وبلغها ذلك ، لاثت خمارها على رأسها واشتملت جلبابها ..

وخرجت تطأ ذيولها ، ما تخرِمُ مِشيتُها مِشيةَ رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فنيطت دونها ملاءة فجلست ثم أنَّت أنَّة أجهشَ لها القوم بالبكاء فارتجَّ المجلس ثم انها أمهلتهم هُنيئة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله فعاد القوم إلى بكائهم فلما أمسكوا عادت إلى كلامها فقالت عليها السلام :

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها وسبوغ الاء أسداها وتمام منن والاها جم عن الإحصاء عددها .. الى أن تقول :

أيها الناس! اعلموا أني فاطمة! وأبي محمد! أقول عوداً وبدءاً ولا أقول ما أقول غلطاً ، ولا أفعل ما أفعل شططاً ، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم .

****

(13)

وبعد أن تُوَضِّحَ دور أبيها المصطفى محمد (صلى الله عليه وآله) تتطرقُ عليها السلام الى الفِرقةِ والنفاق الذي ظهر بين أصحاب رسول الله بعد موته مباشرة اذ تقول في خطبتها تلك :

فلما اختار الله لنبيه (ﷺ) دار أنبيائه ومأوى أصفيائه ظهر فيكم حسكة النفاق ...

وأطلَعَ الشيطان رأسه من مَغرَزِهِ هاتفا بكم فألفاكم لدعوته مستجيبين !

ثم توضح لهم خطأهم وكيف تركوا رسول الله وراء ظهورهم ـ لم يكن قد أدخلوه قبره بعد ـ حين اختلفوا على من يكون الخليفة من بعده ! وفي هذا تقول عليها السلام :

هذا والعهد قريب ، والكلم رحيب ، والجُرحُ لمَّا يندمِل والرسول لمَّا يُقبَر !

إبتداراً زعمتم خوف الفتنة (ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم محيطة بالكافرين) فهيهات منكم ! وكيف بكم ؟ وأنى تؤفكون ؟

وكتاب الله بين أظهركم أموره ظاهرة ، وأحكامه زاهرة ، وأعلامه باهرة ، وزواجره لائحة ، وأوامره واضحة ، وقد خلفتموه وراء ظهوركم .

أرغبة عنه تريدون ؟ أم بغيره تحكمون ، بئس للظالمين بدلا .

ثم تعود عليها السلام لتوضح حجم الفتنة التي أحدثوها بعد موت والدها ودور الشيطان في تأجيج هذه الفتنة حيث تقول عليها السلام :

ثم أخذتم تورون وقدتها ـ اي الفتنة ـ وتهيجون جمرتها وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي ، واطفاء أنوار الدين الجلي ، وإخماد سنن النبي الصفي ..

بعدها تتطرق الى قضية اغتصاب حقها في فدك فتقول :

وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا (أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)

أفلا تعلمون ؟!

بلى ! تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته .

أيها المسلمون أأغلب على ارثيه ؟

يا ابن أبي قحافة ـ وتعني أبا بكر ـ أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي ؟!

لقد جئت شيئاً فريا !!

ثم ترد عليها السلام على حجتهم الواهية بأنهم سمعوا من الرسول قوله (نحن معشرَ الأنبياء لا نُوَرِّث) !

فكان ردُّها على افترائهم هذا بأن أباها لا ينطق بما يعارض القرآن ، ففي القرآن آيات كثيرة وواضحة تدل على ان الأنبياء يورثون لذرياتهم فمن أين جاءوا بهذا الحديث ؟! وذلك قولها عليها السلام :

أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم اذ يقول (وورث سليمان داوود)

وقال فيما اقتصَّ من خبر زكريا (فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب)

وقال (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) وقال (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وقال (ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين)

وزعمتم أن لاحظوة لي ! ولا إرث من أبي ! أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها ؟ أم تقولون : إنا أهل ملتين لا يتوارثان ! أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة ؟

أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي ؟

فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك .

فنعم الحكم الله ، والزعيم محمد ، والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولا ينفعكم إذ تندمون ، ولكل نبأ مستقر ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم .

(14)

جاء شهر الله محملاً بعبق الرسالة المحمدية ونور النبوة الخاتمة ..

جاء شهر رمضان وامتلأت الأجواء بالتراتيل القرآنية العذبة ، كان شهر رمضان لهذا العام مميزا في منزل الخالة سعاد .

فلقد أضفت فدك على ذلك المنزل الواسع لمسات ايمانية صارت واضحة على كل فرد من أفراده .

كان " أسامة " أكثر من بانت عليه تلك اللمسات النورانية ، فطوال أيام الشهر الفضيل لم تفارق المسبحة يديه ، كما انه التزم بأداء الفرائض كاملة وكان كثيرا ما يستمع الى أدعية وقت السحر وتراتيل ساعة الغروب .

أما جمانة فلقد التزمت التزاما كاملا بالحجاب أمام أسامة ووالده بعد أن أفهمتها أختها الكبرى بأن صيامها سيكون ناقصا ان هي استمرت على التبرج والسفور أمامهما ، فهما في النهاية زوج خالتها وابن خالتها وهما ليسا من المحارم .

حينها سألت جمانة أختها :

- ومن هم المحارم الذين يجوز خلع الحجاب أمامهم ؟

أجابت فدك :

- الأب والأخ والزوج والإبن والعم والخال والجد وابن الأخ وابن الأخت وزوج الأم وابن الزوج .. فهؤلاء يمكن للمرأة خلع الحجاب أمامهم مع البقاء على الحشمة والاحترام .

أكملت فدك وهي تلاحظ تفاعل أختها الصغرى مع الموضوع :

- فلا يوجد شيء في ديننا اسمه (مثل اخي) او (مثل ابي) او (مثل ابني) !!!

ومع الأسف الشديد نرى بعض نساءنا وفتياتنا ترتدي الحجاب أمام الأقارب في شهر رمضان فقط حتى لا يبطل صيامها .. واقصد بالأقارب أمثال ابن الخال وابن الخالة وابن العم وابن العمة والأنساب كزوج الأخت وزوج الخالة وزوج العمة فنراها ترتدي امامهم الحجاب كاملا في شهر رمضان وما أن ينتهي هذا الشهر حتى تعود لخلع الحجاب أمامهم !!

ان مجرد ارتدائها للحجاب أمام هؤلاء الرجال في شهر رمضان هو اعتراف منها بأنها كانت على خطأ طيلة اشهر السنة ، وانها يجب عليها التحجب أمامهم لكن مقولات (هذا مثل اخي وهذا مثل ابي وهذا مثل ابني) الشائعة في مجتمعنا الاسلامي ادت الى التهاون في مسألة الحجاب أمام الأقارب من الذين يجب التزام الحجاب الشرعي أمامهم سواء في شهر رمضان أو في غيره من الأشهر .

هذا ما كان من شأن جمانة أما أسامة فلقد توجه بالسؤال الى جمانة فكان حديثٌ رمضاني شيق وبحضور فدك ايضا حين سألها قائلا :

ـ أتساءل كثيراً هذه الأيام يا جمانة هل ستبقين على حجابكِ أم ستخلعيهِ ما أن ينتهي شهر رمضان ؟

نظرت جمانة الى فدك وكأنها تطلب في نظرتها هذه وسيلة الاستعانة بصديق !

قالت فدك والابتسامة ترتسم على شفتيها :

ـ ان كانت جمانة من " عبدة شهر رمضان " فإنها ستخلعه ما ان يمضي الشهر ، أما ان كانت تعبد " الله " فانها ستبقى ملتزمة بهذا الأمر الشرعي لأنه صادر من الله الذي أوجبه على المرأة في كل زمان ولم يخصص ارتداءه في شهر رمضان فقط !

قال اسامة بتعجب :

ـ وماذا تقصدين ب " عبدة شهر رمضان " ؟!

ـ انهم الذين يبتعدون عن فعل المحرمات ويلتزمون بإداء الواجبات فقط في شهر رمضان!!

فنراهم يؤدون الصلاة الواجبة في هذا الشهر الكريم ويتركون سماع الأغاني وتترك المرأة السفور والتبرج ويمتنعون عن الغيبة والنميمة ويتواصلون مع ارحامهم ولا يكذبون ولا ولا .... كل ذلك لأنهم صائمون ! وما ان ينتهي الشهر الفضيل حتى يعودوا الى كل تلك المعاصي والآثام تاركين عباداتهم وطاعاتهم!

قال أسامة في نفسه : وكأنها تتكلم عني!

أكملت فدك بحرقة قلب بانت على صوتها الشجي :

ـ مع الأسف كل الطاعات تنتهي بقدوم العيد ! وكأن العيد عند اكثر الناس هو إيذانا لهم بترك الطاعات والعودة الى المعاصي!

في حين ان للامام علي بن ابي طالب عليه السلام نظرته الخاصة عن العيد ..

تساءل أسامة بدهشة : نظرة خاصة ؟!

فردَّت فدك بأسى :

ـ نعم ..حيث ذكر ذلك صاحب كتاب مستدرك الوسائل في الجزء السادس من كتابه فعن الامام علي عليه السلام انه قال عن المفهوم الحقيقي للعيد " كل يوم لا تعصي الله فيه فهو يوم عيد " .

(15)

كانت فدك تقضي ليالي شهر رمضان بالتهجد وقراءة القرآن لكنها لم تكن ملتفتة الى مراقبة أسامة لها !

كانت بطلتنا تدعو خالتها سعاد الى غرفتهما هي وجمانة لتقرأ معهما كل ليلة جزء أو أكثر من آيات الذكر الحكيم مع تفسير وتوضيح لما هو غامض لديهما من تلك الآيات ، كما وتعلمهما طريقة القراءة الصحيحة وما تشتمله من أحكام التلاوة و التجويد .

في تلك الفترة يحاول أسامة أن يكون موجودا في الباحة الصغيرة التي تطل على غرفة الفتاتين ، مما يسمح له سماع صوت فدك وهي تتلو آيات الذكر الحكيم ..

لقد كان صوتها الشجي يحلق به في عالم آخر ! عالم ملئه الطهر والنقاء والسكينة .

وفي احدى ساعات ما قبل الغروب دخل أسامة المطبخ ليرى ابنتي خالته وهما منكبتان على تحضير طعام الافطار ، قال وهو يسحب احد الكراسي المصفوفة حول طاولة صغيرة وأنيقة :

ـ ان لك صوتا مميزا في قراءة القرآن وتلاوتك رائعة يا فدك .. وكذلك تفسيرك لمعانيه الغامضة تفسيراً دقيقاً وواضحاً .. فمن علَّمكِ كُلَّ هذا ؟!

تفاجأت فدك بسؤاله فهي لم تتلو القرآن أمامه اطلاقاً !!

فارتبكت قليلا وهي تجيب :

ـ انه محمود .

قال مندهشا : هل فعلا انه مَن عَلَّمكِ كُلَّ هذا الفهمِ والتدبر في قراءة القرآن ؟!

قالت وقد أخذها سؤاله الى حيث يسكن قريبها محمود :

ـ نعم .. انه قارئ قرآن متمكن .

لاحظ أسامة الحزن الذي ارتسم على وجهها ما أن ذكرت قريبها محمود !

حاول تغيير سير الحديث :

ـ بخصوص محاورتنا السابقة عن (عبدة رمضان) ..

تساءلت فدك بفضول :

ـ نعم .. ما بهم ؟

ـ هل تعلمين انني كنت منهم !

دهشت فدك وكذلك أختها جمانة التي كانت تستمع الى حديثهما بعجب !

أكمل أسامة وهو يلاحظ تغير ملامح الفتاتين :

ـ لماذا تندهشان هكذا ؟!

ـ هناك في المانيا تختلف الأجواء عمّا موجود هنا !

فما أن ينتهي الشهر الفضيل حتى أعود الى سابق عهدي من الطيش واللامبالاة بأحكام الدين .

أما في هذا العام فلقد قررت أن أستمر على طاعتي وتركي للمعصية حتى بعد انتهاء شهر رمضان .. حتى لا أكون من الذين وصفتهم فدك ب " عبدة رمضان " !!

سألته فدك والدهشة ما زالت بادية على تقاسيم وجهها :

ـ والأغاني هل ستستطيع تركها ؟!

هز أسامة رأسه علامة الايجاب قائلا :

ـ صدقيني لقد تركتها منذ أن تحدثنا عنها وعن غرور هذه الدنيا في جلستنا تلك في حدائق مدينة الألعاب .

فرحت فدك أيما فرح وهي تستمع الى حديث أسامة وحاولت بقدر استطاعتها أن تخفي فرحتها تلك ، قالت وهي تبتعد عنه :

ـ الحمد لله .. والآن سأنشغل بتحضير الطعام فمدفع الافطار على وشك أن يضرب وقدماي على وشك أن لا تستطيعا حملي بعد !

ابتسم أسامة وشعر براحة كبيرة هو الآخر لأنه استطاع أن يُفرِغَ ما بجُعبَتهِ من حديث لطالما أراد أن يخبرها به !

أما (جمانة) فكانت ترقب كل هذا وهي في حالة من الذهول وتشتت الأفكار !!

شعرت وللمرة الأولى في حياتها بأن أسامة ما عاد لها كما كان سابقا ..

انه شخص آخر ! ليس خطيبها الذي تعرفه ! بل انه ليس خطيبها على الاطلاق ! أحست بالاعياء والتعب فجأة .. تحدثت مع نفسها وهي تنظر اليه تاركا المطبخ :

ـ يا الهي .. كأنه أسيرها هي لا غير .. أختي فدك !

(16)

في أمسية رمضانية جمعت كل من فدك وجمانة مع جميع أفراد عائلة خالتهما سعاد بما فيهم منى وزوجها ظافر اللذين كانا في زيارة لبيت العائلة ..

وطوال فترة جلوسهم في غرفة استقبال الضيوف كان ظافر لا يبعد نظره عن فدك !

إنتبه أسامة إلى الأمر وأحس بالدماء تغلي في عروقه .. شعر في تلك اللحظة بمقدار الحب الذي يكنه لابنة خالته فدك فهو لا يحتمل أن ينظر رجل آخر غيره إلى محاسن وجهها !

وصار يحدث نفسه : لولا انه زوج أختي ولم ألتقه منذ سنوات لأشبعته ضربا .. ياله من معتوه !

قال ظافر موجها حديثه لأسامة بعد أن تركت فدك الجلسة :

ـ كيف هي ألمانيا يا عزيزي؟

ثم أردف وهو يضحك بتهور : يقال أنها رائعة الجمال وأجمل ما فيها نساؤها !!

في هذه الأثناء عادت فدك إلى الغرفة وفي يدها علبة الحلويات التي اعتادوا تناولها بعد الإفطار منذ بداية شهر رمضان ..

وأثناء دخولها سمعت جملة ظافر الأخيرة ونظرت إلى أسامة فرأت الامتعاظ باديا على ملامحه ، أرادت أن ترد هي بنفسها على الكلام التافه الذي تفوه به ظافر لكنها تفاجأت برد أسامة له بنفس الكلمات التي أرادت أن ترده هي بها !

ـ ما هذا يا ظافر .. إننا في شهر الله .. أي نساء وأي جمال هذا الذي تتحدث عنه ؟ ألا تستحي من نفسك ؟

دهش ظافر وكل من كان حاضرا تلك الجلسة العائلية .. أجاب ظافر وهو يلوي شفتيه بطريقة مضحكة :

ـ ولكن ما بك يا أسامة ؟! ما الذي قلته أنا .. هل أصدق بأنك لم تذهب إلى ألمانيا لأجل جمالها وجمال نسائها !

هنا قام أسامة من مكانه ومن غير أن يشعر سحب الطاولة التي أمامه وضرب بها رأس زوج أخته ..

صاحت منى وهي تركض تجاه زوجها :

ـ لقد شج رأسك .. ما شأنك وشأنه ؟ أفي كل مرة نخرج فيها من المنزل تعكر علي صفو حياتي ؟ ألا يكفي ما تجره علي من ويلات داخل المنزل؟

مد ظافر يده نحوها .. صفعها بقوة وهو يقول :

ـ عرفت الآن من أين لك هذا اللسان السليط وهذه الأخلاق الوضيعة ..

ثم نظر إليها بحدة وهو يضع يده على رأسه ويقول :

ـ أنت نسخة من أخيك .. إبقي عنده فلا حاجة لي بك بعد اليوم .

وإتجه راكضا نحو الباب وركض أسامة خلفه وهو يردد :

أيها الوضيع التافه .

وحاول اللحاق به لولا أن فدك وجمانة إعترضتا طريقه ومنعتاه من الخروج .

(17)

في غرفة نوم الأختين كانت مشاعرهما متضاربة!! فجمانة حزينة لأنها صارت تشعر بأن أسامة ما عاد خطيبها !! بينما فدك تبدو فرحة جداً لأن أسامة صار مقارباً لأفكارها ، فتساءلت فدك وهي تلاحظ حزنا في عيني أختها :

ـ ما لي أراك كئيبة حزينة يا نور عيني ؟

أجابت جمانة من غير أن تنظر إلى وجه أختها :

ـ لقد صدمني أسامة اليوم بتصرفه مع ظافر زوج منى . فردَّتْ فدك : ولكن تصرفه كان طبيعيا جداً ؟ إن ظافر إنسان وقح ويجب أن يجد من يوقفه .. لقد كان ينظر لي نظرات مريبة جعلتني ارتبك كثيرا .. بالإضافة إلى أسلوبه التافه في توجيه ذلك السؤال .

تحسرت جمانة وهي تقول : ـ هل رأيت كيف ثار أسامة في وجهه من دون أي تفاهم ؟ لقد تغير أسامة كثيرا يا فدك وأشعر بأن هناك أمرا يؤرقه ، أراه متوترا دائما وينزعج لأتفه الأسباب بل صار يتجنب الحديث معي وعندما حاولت أن أفهم منه ما يجري قالها بالحرف الواحد : ـ إنني نادم على تلك الليالي التي قضيناها سويا عبر الإنترنت .

سألت فدك بتعجب : ـ وأنت ألست نادمة ؟!

قالت جمانة بعصبية : ـ ولماذا أندم. . أوليس قريبي وحبيبي ، أولم يكن من المفروض انه أتى ليأخذني معه إلى ألمانيا ، لماذا لم يعد يتكلم بهذا الموضوع على الإطلاق ؟

هدَّأت فدك من روع أختها وهي تقول : ـ حبيبتي مهما تكن طبيعة العلاقة بين الجنسين سواء كانت بالهاتف أو الانترنت أو الرسائل الورقية أو اللقاءات المباشرة فهي جميعها تقع ضمن العلاقات المحرمة .

قالت جمانة بتألم : ولكن لماذا ؟ نحن لم نكن نعمل شيئا حراما والعياذ بالله!

قالت فدك مبتسمة : ـ كيف لم تعملوا شيئا حراما ؟! استحلفك بالله ... الم تكونا تتبادلان الأشعار الغزلية والكلمات العاطفية التي تدغدغ القلب والمشاعر وتجعلكما في حالة من التوتر العاطفي ؟! كم مرة قضيتِ لياليك بالبكاء والنحيب شوقا لرؤية وجه حبيبك حقيقة وليس في الانترنت فقط ؟! وكم ليلة سهرتِ حتى الصباح ترسمين في مخيلتك مواقف وأحداث تجمعك بفارس أحلامك في قصص خيالية طويلة ؟! هذا التوتر وهذا الابتعاد عن الواقع وهذه الأحلام والخيالات كلها من نسج خيوط الشيطان ! فهو مستمر في مصائده ومكائده للشباب والمراهقين لإبعادهم عن ساحة العشق الإلهي .

إن الهدف من خلقنا يا أختاه يسمو ويعلو فوق كل الأهداف والغايات .. فعندما قال تعالى : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " لم يعنِ بالعبادة فقط أن تقضي عمرك كله بالصيام والصلاة والصوم والحج ووو ، إنما العبادة يا أختاه تعني الطاعة المطلقة لله ، وهذه العلاقات بين الجنسين إنما تبتعد بالإنسان عن طريق الطاعة .. هل تعرفين لماذا ؟!

وعندما لم تجد فدك إجابة من أختها أجابت بنفسها قائلة : ـ لأن ذلك الإنسان العاشق سيكون مستعد لعمل أي شيء في سبيل إنماء تلك العلاقة والحصول على الوصال بينه وبين حبيبه .. حتى ولو كان ذلك الشيء الذي يفعله سيغضب الرب . ولا تقولي لن تصل الأمور إلى ما وصفتِه الآن ! فأنا أؤكد لكِ أن التمادي في تلك العلاقات سيوصل الإنسان إلى حيث الهاوية حتى لو كان مؤمنا في الظاهر ، لأن خطوات الشيطان لا تأتي دفعة واحدة بل تأتي خطوة بعد أُخرى وعلى شكل دفعات إلى أن توقِعنا في المعصية الكبرى لننال بعدها غضب الله والطرد من ساحة رحمته .

قالت جمانة وقد اتضحت لديها بعض الأمور : ـ هل يعني هذا أن التوتر العاطفي والمشاعر الجياشة التي تضرب بالعاشقين تجعلهم يبتعدون عن الله شيئاً فشيئا ؟!

أجابت فدك بارتياح :

ـ أحسنتِ أختاه .. وإنما ابتعادهم هذا يأتي نتيجة تفكيرهم بالشخص المعشوق فقط متناسين طاعتهم لخالقهم الذي يريد منهم أن يكونوا أناساً ذوي قلوب طاهرة وعقول متكاملة ومشاعر وعواطف متزنة وغير متوترة ليتمكنوا من ممارسة حياتهم بصورة صحيحة كما أرادها لهم رب العزة وليس كما أرادها لهم الشيطان .

(18)

انتهى شهر رمضان وجاء العيد وأسامة مستمر على الصلاة ، كانت كلمات فدك ترن في أذنه " أن إمامنا علي عليه السلام يقول : "كل يوم لا تعصِ الله فيه فهو يوم عيد "

كما أن جمانة استمرت في ارتداء الحجاب أمامه وأمام والده وعندما سألها أجابت : أنها لا تريد أن تكون من عبدة شهر رمضان!!

لقد قرر أسامة أن يتكلم مع فدك بخصوص مشاعره بعد أن تركت في نفسه أكبر الأثر ، إذ جاء الوقت الذي يجب أن يسافر الى المانيا ، وصار ينظر إليها على أنها الإنسانة التي أخرجته هو وجمانة من الظلمات إلى النور ، فصارا يبصران عن طريقها هداية الله وتوفيقه .

في تلك الليلة اجتمعت العائلة بما فيهم ـ منى ـ التي لم تعد إلى الآن إلى بيت زوجها ظافر بسبب الشِجار الأخير الذي حصل بينه وبين أخيها أسامة .

قال أبو أسامة وهو ينظر صوب فدك : قبل الشهر الفضيل كانت آخر أمسية تحدثنا فيها عن الخلاف الذي حصل بين السيدة الزهراء والخليفة الأول وخطبتها الشريفة بخصوص أرضها المغصوبة " فدك " .

هزت فدك رأسها وهي تقول :

ـ نعم يا عم .. بالضبط!

فأردف أبو أسامة قائلاً :

ـ أتساءل كثيراً بعد نقلكِ لمقاطع من تلك الخطبة : ما الدليل على صحة هذه الروايات أمثال رواية اغتصاب فدك والخطبة الفدكية وما شابه؟!

ابتسمت فدك وهي تقول بكل ثقة :

ـ أدلة كثيرة يا عماه .. فهذه كتبهم تشهد بفضل الزهراء عليها السلام وان من أغضبها فقد أغضب الله ورسوله! وإليك أسماء الكتب والأبواب والفصول التي ذكرت فيها هذه الحقيقة ..

إذهب إلى صحيح البخاري في كتاب النكاح وكتاب بدء الخلق فستجد رواية أن فاطمة عليها السلام قد قال فيها رسول الله صلى الله عليه وآله " أن من أغضبها فقد أغضب الله ورسوله ومن آذاها فقد آذى الله ورسوله " ! واذهب إلى صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة فستجد الرواية نفسها!

قال أبو أسامة وقد اتسعت حدقتا عينيه :

ـ ولكن يا ابنتي هذه من أكبر الكتب والمصادر التي يعتمدها أخواننا أهل السنة في أحاديثهم ؟!

ـ نعم يا عم .. إن مظلومية أهل بيت النبي موجودة في كتبهم ، كما ان فضائل علي وفاطمة تغص بها تلك الكتب والكثير من الحقائق نستطيع أن نطلع عليها من خلال صحيحي البخاري ومسلم !

قال أبو أسامة : ـ أكملي.. أكملي .. رعاك الله !

ـ ولقد ذُكِرَتْ نفس الرواية في كتب مهمة أخرى أهمها كتاب صحيح الترمذي وكنز العمال والصواعق المحرقة ومستدرك الصحيحين وجميعها من كتب أخواننا وليست من كتب الشيعة على الاطلاق !

وبعد أن عرفتم أن أهل السنة والجماعة يعترفون وفي أكبر مصادرهم بفضل الزهراء عليها السلام وبأن الذي يؤذيها فقد آذى رسول الله ومن أغضبها فقد أغضب الله ورسوله .. فإليكم الآن الحقيقة الأخرى التي ذكرتها كتبهم وتناقلتها أحاديثهم وهي تقول " أن فاطمة ماتت وهي غاضبة على أبي بكر وعمر "!!

ولو جمعنا بين الرواية الأولى والثانية فستكون الصدمة " أن أبا بكر وعمر قد غضب الله ورسوله عليهما بغضب فاطمة عليهما "

قالت منى وقد شدَّها الحديث كثيراً :

ـ لكنكِ لم تخبرينا عن مصادر الرواية الثانية ؟!

فأسرعت فدك مُردِفَةً :

ـ ستجدونها في صحيح البخاري كتاب الخمس وكتاب الفرائض وكتاب المغازي باب غزوة خيبر ونص الرواية (فغضبت فاطمة بنت رسول الله فهجرت أبا بكر فلم تزل مهاجرته حتى توفيت)!

وقد ذكر صحيح مسلم أنها عليها السلام ماتت وهي واجدة ـ أي ـ غاضبة ـ على أبي بكر وعمر ، وذلك في كتاب الجهاد والسير التابع لصحيح مسلم .. وذُكِرَ ذلك أيضا في كل من : سنن البيهقي ، تأريخ الإسلام للذهبي ، الإمامة والسياسة لابن قتيبة وغيرها الكثير .

قالت جمانة باهتمام : ـ هل هذا هو سبب عدم معرفتنا لمكان قبرها ؟ أقصد هل أن غضبها على الرجلين جعلها توصي بإخفاء قبرها ؟!

قالت فدك : ـ وماذا يمكن أن نتصور غير ذلك ؟!

أكملت فدك وقد شاهد الجميع تلألؤ الدموع في عينيها : ـ وكأنها ـ عليها السلام ـ بإخفاء موقع قبرها الشريف أرادت أن توصل إلينا رسالة صادقة عن مظلوميتها وعن الحزن والألم الكبيرين اللذين يعتصران قلبها الطاهر نتيجة الظلم الذي لحق بها بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله.

(19)

بعد أن عزم أسامة على مصارحة فدك بمشاعره اتجه في احدى الليالي نحو غرفتها بعد أن تأكد من أن جمانة تجلس مع منى في صالة البيت وأن فدك لوحدها الآن في الغرفة ..

طرق الباب بهدوء وما هي إلا لحظات حتى فتحت فدك الباب وصدمتها رؤية أسامة!

قالت بارتباك : ـ أسامة! ماذا حصل ؟!

قال أسامة وقد بدا الارتباك واضحاً عليه هو الآخر :

ـ لديَّ ما أقوله لكِ يا فدك .. بعد أقل من أسبوع يجب أن أعود إلى حيث مقر إقامتي وسكني وعملي في ألمانيا .. لذلك قررت أن أخبركِ بحقيقة مشاعري قبل الرحيل .

تراكضت دقات قلبها وهي تستمع لكلماته ، وآلمتها عبارته الأخيرة (قبل الرحيل) !

قالت بحزن لم تستطع إخفاءه :

ـ وهل سترحل فعلاً يا أسامة ؟

ـ نعم .. للأسف .

فأردفت :

ـ وجمانة ؟ ستأخذها معك .. أليس كذلك ؟

ـ لا .. كان هذا قبل أن ألتقيكِ يا فدك .

تزايدت دقات قلبها أكثر فأكثر فقد كانت على يقين شبه تام بأن أسامة ما طرق باب غرفتها إلا ليبوح لها عن حبه ! فاستجمعت قواها وهي تقول :

ـ اسمع يا أسامة .. إن جمانة عندي أغلى وأثمن من كل شيء ، لذلك أرجو أن تنسى هذا الموضوع وإلا سأجمع أغراضي وأرحل عن بيتكم إلى الأبد .

قال أسامة بدهشة : ـ أنتِ تعرفين بحبي لكِ ؟!

صمتت فدك وفي قلبها مشاعر متضاربة .

عاد أسامة للحديث : ـ والآن .. هل بإمكاني طلب يدكِ للزواج ؟!

أحمر لون وجهها خجلاً ، وقفز الحزن إلى قلبها المرهف دفعة واحدة ، وشعرت بأن القدر لا يرضى لها بالسعادة على الاطلاق!

فبعد أن عاشت سنوات وسنوات محرومة من حنان الأبوين ومن رؤية وجه أختها الوحيدة ها هي اليوم أمام الرجل الذي فرض عليها القدر حبه واحترامه وهو يبوح لها برغبته الصادقة للزواج منها .. لكنها ترى نفسها مجبورة على رفضه!

فقالت وهي تشعر بأن قلبها سينقلع من مكانه من شدة الحزن والألم : - حتى وان كان لك في قلبي مكانة خاصة ومنزلة عالية إلا أن حبي لأختي وحرصي على سعادتها أعز وأغلى .

قال كمن يتوسل :

- ولكني لم أعد أحبها كالسابق! أقصد أنني ما أحببتها يوماً! لقد كانت علاقتي بها علاقة رخيصة ، كنت أتسلى وأقضي أوقات فراغي معها في أحاديث طائشة وأتمتع بالنظر إلى مفاتنها عبر الأنترنت .. كل هذا ندمت عليه صدّقيني وخاصة أنني كنت أستغل صغر سنها وبراءتها وعدم معرفتها .. أنا لم أعد قادراً على إكمال مشوار حياتي معها ، صحيح أنها الآن فتاة أخرى بفضل وجودكِ بقربها إلا أنني ما عدت أنظر اليها إلا كأخت .. أرجوكِ إفهميني . قلبي متعلق بكِ أنتِ وحدك!

قالت فدك وهي تحاول إنهاء الحديث :

- لستُ حقيرة بالمقدار الذي أخون فيه أختي .. فوالله حتى لو كانت مجرد صديقتي لما فعلت ما تطلبه مني الآن ، فكيف إن كانت مَنْ سأتسبَّب لها بالآلام هي أختي التي من لحمي ودمي ؟!

قال أسامة وقد شعر بالفشل الذريع : - هل هذا آخر كلام لديكِ ؟ أأفهم من هذا أن رفضكِ لي نهائي ؟

قالت ولم تستطع مقاومة دموعها : - نعم .. نهائي!

قال وهو يحاول إنهاء الحديث : - حسنا .. سأسافر عما قريب وبمفردي .

تساءلت باستغراب : - وجمانة ؟!

- لن آخذها معي مطلقاً .

- وما الذنب الذي اقترفته ؟ أكملت ودموعها تُسابِقُ كلماتِها :

- هل ذنبها أن لها أختاً اسمها فدك ظهرت في حياتها وفي وقت غير مناسب ؟!

قال أسامة بأسى : - الذنب ليس ذنبكِ يا فدك .. وليس ذنبها .. بل حتى ليس ذنبي !! إنه القدر الذي جعلني أهواكِ هكذا!

قالت بتوسل : - أرجوك يا أسامة .. أختي تحبك وقد رسمت آمالاً وأحلاماً منذ الصغر للسفر معك ومشاطرتك حياتك القادمة!

فأجاب بمرارة :

- صدقيني يا فدك .. الأمر ليس بيدي . نعم أخطأت منذ البداية عندما جعلتها تتعلق بي إلى هذه الدرجة ، كان المفروض أن أتأكد من حقيقة مشاعري تجاهها .. والتي كانت مشاعر انسان مراهق ومتهور ليس إلا! أما الآن فأنا انسان آخر ولن يسمح لي ضميري أن أستمر بتلك اللعبة القذرة معها .

قالت بعصبية :

- أي لعبة .. انكما ستتزوجان وستسافران بعيداً حيث لا فدك ولا هم يحزنون! نعم ستنسى وجودي .. أنا متأكدة .. أرجوك فكر أكثر بمشاعرها التي سوف تُجْرَحُ وأحلامها التي سوف تنهار .

قال وهو يبتعد عنها :

- لا أستطيع .. لا أستطيع .. وداعاً!

استأذن أسامة بالرحيل بعد أن شعر بأن قدميه لا تعيناه على الوقوف وبأن عينيه ستخذلانه وتسمحان لدموعه بالنزول .. انه رجل ولا يمكن أن يبكي لأجل فتاة ترفض الارتباط به . هكذا حدث نفسه وهو يبتعد .

أما فدك فلقد أغلقت الباب بقوة ورمت نفسها على السرير باكية ناحبة حتى الفجر .

(20)

سافر أسامة تاركاً خلفه قلبين منكسرين ، قلب لإنسانة أحبته ، وحاول أن يُبادلها نفس المشاعر ، لكنه اكتشف بعد ذلك انه لم يكن يحبها! وآخر لإنسانة أحبته وأحبها لكن وفاءها لأختها وخوفها الشديد من الله جعلاها تدوس على مشاعرها وتقرر أن تبعد اسمه من قاموس حياتها ، إكراماً لأختها الصغرى والتي عاشت سنين طويلة تتلهف لرؤيتها ومشاطرتها أيام حياتها .

صارت فدك تلاحظ حزن جمانة وكآبتها ، بل أصبحت تشعر بتغير أختها نحوها ، فلقد عرف الجميع سبب رحيل أسامة لوحده من دون جمانة!

وفي إحدى الليالي وبينما كانت كل واحدة منهما مستلقية على سريرها .. قالت جمانة لفدك :

- لماذا لم ترحلي معه ؟!

فردَّت فدك بارتباك :

- أرحل ؟ مع من ؟!

- مع أسامة .

- ولكن .. ماذا تقولين ؟!

- أولستما متحابين ؟ أولستِ تحبينه كما يحبكِ ؟! لماذا تركتِه يرحل لوحده ؟!

- ولكن يا جمانة .. هلَّا تركتِ الحديث في هذا الموضوع .. قالت جمانة بعصبية :

- يجب أن ترحلي!

- هل يعني هذا .. انك قررتِ طردي من حياتك ؟!

صمتت جمانة ولم تتكلم بغير لغة الدموع ، فأضافت فدك :

- سألملم أغراضي صباح يوم غد لأعود من حيث أتيت .

قالت جمانة وهي تمسح دموعها :

- لا بل تذهبين إلى حيث أسامة .

- ما هذا الهذيان الذي تتفوهين به ؟!

ـ أنا لا أهذي .. انه يحبكِ يا فدك .. ألم تلاحظي تغيره التام ؟! لقد أصبح من المصلين الصائمين ، ترك الغناء والطرب ، ترك مقاهي الأنترنت والبلياردا! بل ترك الدنيا وما فيها لأجلكِ أنت .. وأنت تصديه هكذا ؟!

ـ لا يا جمانة انه لم يترك كل هذا لأجلي .. فإن كان ذلك كما تقولين فهذا يعني انه يعبدني ولا يعبد الله عز وجل!

ـ أنا لم أعنِ هذا الذي تبادر إلى ذهنك ، بل عنيت أنه تأثر بك وبكلامك وبتصرفاتك جدا حتى أصبح إنساناً آخر . ثم وضعت جمانة رأسها في حجر أختها وهي تقول :

ـ اسمعي يا فدك .. منذ اليوم الذي جئتِ فيه إلى منزلنا وأنا أشعر بأن هناك أمراً ما تخفيانه عني أنتِ وأسامة .. أشعر بأنكما التقيتما سابقاً!!

منذ لحظة دخوله المنزل بعدكِ مباشرة في ذلك اليوم الممطر وأنا أرى تصرفاته وأراقبها حتى تأكدت انه يعيش في عالمكِ أنتِ مبتعداً عن عالمي!

حينها بدأتُ أروض نفسي على نسيانه .

ـ وهل نجحتِ في ترويض نفسك ؟!

ـ إستطعتُ شيئاً فشيئاً أن أستبدل مشاعر الهوى والعاطفة الجياشة إلى مشاعر الأخوة والمحبة البريئة .

(21)

قالت فدك بدهشة :

ـ هل تريدين إقناعي بأنكِ تنظرين إلى أسامة الآن كأخ ؟

أجابت جمانة بثقة :

ـ نعم بالضبط .. أقسم بالله.

وقد ساعدني على ذلك إحساسي بأني كنت أعشق معيشة أسامة وحياته خارج البلاد .. أعشق الرفاهية التي يعيشها الناس هناك وأتطلع إلى اليوم الذي أسافر فيه إلى المانيا وليس إلى اليوم الذي سأرتبط به كزوجة!

وعندما بدأتِ تتحدثين لي عن معنى الحياة الحقيقية وعن زوال هذه الحياة الدنيا وبأنها دار غرور ومحل لعب ولهو بالنسبة للمبتعدين عن الله ، وهي حياة اختبار وابتلاء للمؤمنين الأخيار .. حينها بدأت رغبتي بالسفر تقل شيئاً فشيئاً حتى تلاشت .. صدقيني .

ـ لكن هل يمكن هذا .. وبهذه السرعة؟

ـ قد يكون حب أسامة لكِ والذي صارت الأيام تؤكده لي .. هو مَنْ لعب دور " العامل المساعد " في أن أتخلى عن حلمي بالسفر إلى المانيا .

قالت فدك بخجل وأسف :

ـ هل يعني هذا انكِ كنت تعرفين بمشاعره نحوي ؟

ـ نعم .. الجميع صار يعلم بحبه لك وتأثره الشديد بك .

ـ إذا كان الأمر كما تقولين .. فلماذا هذا الحزن وهذا التغير نحوي منذ سفر أسامة ؟!

ـ لقد صار تأنيب الضمير يقتلني يا فدك .

سألت فدك بتعجب :

ـ ماذا ؟ تأنيب الضمير! ولكن على ماذا ؟ فأنا التي يجب أن يؤنبها ضميرها ولست أنت!

فبسببي تركك أسامة ورحل .. ولو لم أظهر في حياتك لكنت الآن تنعمين بالسعادة مع أسامة في ألمانيا .. كما وعدك!

قالت جمانة بخشوع وقد أرخت عينيها بالدموع :

ـ بالعكس يا فدك .. مجيئكِ هذا كان في وقته .. فلولاكِ لما وصلنا أنا وأسامة إلى بر الهداية والصلاح .

فهل تعلمين بأنني كنت في السابق وقبل مجيئك قد خططت لخلع الحجاب ما أن تطأ قدماي أرض ألمانيا ؟! أنظري يا فدك إلى رحمة الله فلقد أعادك لي أختاً ناصحة مرشدة .. فكيف كان سيكون مصيري لو أنني سافرتُ مع أسامة ونفذتُ ما كان يدور في رأسي ؟!

قالت فدك وقد مدَّت أناملها الرقيقة نحو وجه أختها وصارت تمسح دموعها :

ـ لولا طيبة قلبكِ وصفاء روحكِ وسلامة فطرتكِ لما كانت عناية الله سبحانه وتعالى قد أنقذتكِ مِمّا كنتِ سَتَرمينَ نفسكِ فيه .

(22)

صمتت فدك و قد لاح في عينيها بريق دمعة حزينة .. لمحت جمانة ذلك البريق فقالت :

ـ حتماً انكِ الآن متلهفة لسماع أخباره ومعرفة أحواله الإيمانية .. هل ما زال يصلي ؟ هل عاد ليستمع الى الأغاني ؟ هل هو غاضٌ لبصره هناك مع تلك الإغراءات والعروض المجانية ؟! أم ما زال حب الله يملأ خافقيه كما كان هنا ؟ وكثير من الأسئلة التي تشغل بالكِ ..

قالت فدك وقد نزلت تلك الدمعة الحزينة لتفصح عن موافقتها لكلام أختها :

ـ آه يا جمانة .. لا تعرفين مدى خوفي عليه!

قالت جمانة وهي تمسك بيد أختها بلطف :

ـ لذلك تمنيت أن ترحلي اليه .. انه بحاجة ماسة لكِ ، فإن لم يكن هو يحتاجك ، فإن دينه والتزامه سيبقيان بحاجة الى انسانة رائعة مثلك .

قالت فدك : ـ هلا توقفتِ عن هذا المديح الذي لا أستحقه ؟!

ردَّت جمانة بعناد : ـ أنا مصرة على انك تستحقينهما معاً .. المديح وأسامة!

ـ أوه يا جمانة .. كم أنتِ عنيدة يا أختاه!

ابتسمت جمانة ثم مدَّت يدها نحو جهازها المحمول وهي تقول :

ـ سأتصل به لتكلميه وتستقصي أخباره بنفسك .

أسرعت فدك وسحبت الهاتف من يد أختها وهي تقول :

ـ لا تجبريني على شيء لا أريد فعله على الاطلاق!

عادت جمانة لأخذ الهاتف وهي تردد :

ـ حسناً سأتصل به أنا .. فهو الآن أخي لا غير .

قالت فدك وقد شعرت ببعض الراحة :

ـ حسناً .. كما يحلو لك .

رنَّ جرس هاتف أسامة ولم تمضِ إلا ثوانٍ حتى طرق صوته أُذُنَ جمانة وهو يقول :

ـ أهلاً بالغالية .. كيف حالكِ جمانة؟

ردت جمانة بفرحٍ غامر :

- الحمد لله .. كيف حالك .. أخي أسامة ؟!

تفاجأ أسامة عند سماعه كلمة (أخي) على لسان جمانة ، فهي للمرة الأولى تخاطبه بهذه الكلمة!

- بخير والحمد لله .. كيف الأحوال عندكم ؟

- أنا وفدك نعتب عليك كثيراً .. فأنت لا تسأل عنا ؟

تسمَّرت فدك في مكانها وقد فغرت فاهها متعجبة من كلام أختها .. فهما لم تتفقان على هذا الكلام!

أشارت بكفها لجمانة أن تعود الى صلب الموضوع لتسأل عن أخباره وكفى!

لكن جمانة غمزتها بطرف عينها وعلى شفتيها ابتسامة خفية .

أجاب أسامة :

- دائما أسأل والدتي عنكما .. صدقيني!

- إن فدك تبعث إليك سلامها و..

لم ينتظرها لتكمل عبارتها فقال :

- هل هي بقربك الآن ؟

- نعم .. نعم .

- حسناً .. ناوليها الهاتف لأسلم عليها إن أمكن .

- طبعاً طبعاً .. إليك هي!

(23)

مدَّت جمانة يدها نحو فدك وهي تقول :

- خذي الجهاز .. أسامة يريد أن يسلم عليكِ!

مدَّت فدك يدها وقد لاحظت جمانة إرتجاف أناملها وهي تمسك بالهاتف لِتَقولَ :

- السلام عليكم .. كيف الحال .. أسامة؟!

كانت فرحته لا توصف وهو يسمعها تلفظ أسمه دون أن تسبقه بكلمة أخي!! هناك تغيير واضح في أسلوب الحديث لدى الأختين!

فردَّ بارتباك :

- الحمد لله .. لا تعرفين مدى شوقي لرؤيتكم .

- نتمنى أن نعرف أخبارك أولا بأول .. كيف تجري الأمور معك ؟

- أوه .. ماذا أقول لكِ .. لقد قررت بعد التوكل على الله أن أفتتح هنا في ألمانيا أكبر مركز اسلامي .

تساءلت فدك بلهفة :

- مركز اسلامي ؟!

قال أسامة بثقة :

- نعم لتوضيح صورة الاسلام الحقيقي بعد أن شَوَّهَ أعداؤه صورته لدى الناس فصاروا ينظرون اليه على انه دين التعصب والارهاب!!

قالت والفرحة تغمرها :

- وهل نجحت في اعداد هذا المشروع ؟

جاءها صوت أسامة مملوءاً بالغُصّةِ :

- ما زال حبراً على ورق!

- ولكن لماذا ؟!

- لقد تركني كل مَنْ كانوا حولي .. أصدقائي الذين قضيت معهم سنيناً طوالاً في اللهو واللعب أداروا لي ظهورهم ما إن عرفوا بفكرة المشروع .. لا أجد من يعينني .. أعمل لوحدي منذ الصباح حتى وقت

متأخر من الليل ما بين اعداد البحوث وتأمين المكان المناسب ودعوة الناس الخيرين من المسلمين لتعريفهم بفكرة المشروع من خلال الندوات والبوسترات وو ...

قاطعته فدك بتعجب :

- كل هذا لوحدك .. أعانك الله!

قال بعد أن أطلق حسرة طويلة :

- كم تمنيت أن تكوني معي في وحدتي هذه!

قالت فدك بثقة :

- ماذا تفعل بي ما دام الله معك ؟! ثم أردفت محاولة زرع الثقة واليقين في قلبه :

- ما دمت اخترت طريق الله فلن يدعك وحدك ولن يتركك أبدا ، فكن واثقاً برَبِّك .

قال وهو يستشعر تلك الثقة بالله :

- نعم يا فدك .. ان الله لم ولن يتركني .. والدليل انني قبل لحظات كنت أفترش سجادتي وأبكي في حضرته خوفاً من عدم استطاعتي إكمالَ ما بدأته لوحدي! فإذا بكِ تتصلين لتعرفي ما هي أخباري ؟! وكأنه سبحانه أراد إخباري بأني لست وحدي وأن هناك من يفكر بي ..

قالت بارتباك : - لم أتصل أنا .. انها جمانة!

قال وقد شعر بارتباكها :

- حسناً حسناً.. أياً كانت المتصلة .. المهم ان هناك من يسأل عني ويحاول معرفة أخباري في هذه البلاد التي لا أخ لي فيها ولا صديق!

قال وهو يأمل منها جواباً شافياً :

- ألم تغيري رأيكِ فيما تحدثنا به آخر مرة ؟!

أردف وقد استشعرت فدك الصدق في حديثه :

- والله لو كنتِ معي في غربتي هذه لما توقفتُ عن العمل في خدمة ديني للحظة واحدة .

في هذه الأثناء تركتها جمانة وخرجت ملبية نداء خالتها سعاد ، قالت فدك وهي تميل بصوتها الى الهمس :

ـ اسمعني يا أسامة .. جمانة ما زالت بحاجتي ، صحيح انها تغيرت لكن هناك أمور كثيرة ما زالت خافية عنها .. وإنَّ وجودي بجانبها هذه الفترة مهم جداً.

سأل بلهفة :

ـ هذه الفترة!؟ هل أفهم من كلامكِ هذا أن هناك أمل بالوصال .. ؟!

توَّردت وجنتاها خجلاً وحياءاً وهي تجيبه :

ـ سيفعل الله ما فيه مصلحتنا إنْ شاءَ .. في أمان الله وحفظه .

أقفل أسامة الخط وهو غير مصدق لما سمع!

ما زالت سجادة صلاته مفروشة على الأرض .. اتجه نحوها بعد أن أطلق العنان لدموعه .. سجد لله شاكراً وهو يردد بصوت شجي : ما أسرع استجابتك يا الله! فعلاً .. من كان مع الله كان الله معه .

(24)

قرر ظافر أن يطلب من منى العودة الى المنزل ، وفي المساء كان عند أهل زوجته ..

- منى .. أرجوكِ .. أنا وأمي المسكينة بحاجة الى وجودكِ في المنزل .

قالت بتذمر :- أنت وأمك ؟!

ضحكت ضحكة عالية ثم أردفت :

- تريد عودتي لتجعلني كما في السابق .. ممرضة لأمك العاجزة .. لا غير!

قام من مكانه وقد احمر وجهه وأنتفخت أوداجه غضباً.. هنا دخلت فدك وهي تحمل صحناً فيه قطع من الكعك وخلفها جمانة التي كانت تحمل العصائر .

تفاجأت الأختان من وقوف ظافر .. قالت جمانة بدهشة :

- هل ما زلت واقفا منذ قدومك ؟ هلّا تفضلتَ بالجلوس ؟ فَرَدَّ عليها بامتعاض :

- لا .. بل أنا أتهيأ للرحيل .

صاحت فدك :

- ماذا ؟ هل عدتما للشِجار ؟

هنا خرجت منى راكضة من غرفة الضيوف بعد أن خنقتها عبرتها .. وضعت جمانة العصائر على الطاولة التي توسطت الغرفة وركضت خلفها .

أشارت فدك إلى ظافر بالجلوس وهي تقول :

- أرجو أن لا تتسرع بالرحيل انتظر عودة خالتي سعاد وعمي غيث .. حتماً سيجدان حلاً لمشكلتكما .

أذعن ظافر لكلام فدك ، جلس وقد هدأت أعصابه قليلاً . جلست فدك على الأريكة التي تقابله ، وقالت بعد برهة :

- أتمنى أن تعطيني من وقتك عشر دقائق لا أكثر .. وأن تسمح لي بالتدخل في قضيتك أنت ومنى .

هز ظافر رأسه وهو يقول :

- ولِمَ لا أسمح ؟ .. تفضلي أنيرينا يا فدك!

قالت بعد أنْ دَعَتِ الله أن يوفقها لإيصال فكرتها له :

ـ لقد علمتُ مِنْ منى انك حاد الطباع معها ، عصبي المزاج ، قاسي الى درجة أنَّك تهينها في كثير من الأحيان بالسب والشتم وحتى الضرب!

قال ظافر بامتعاض :

ـ نعم فعلاً .. لكن ألم تخبركِ بالسبب ؟!

ـ هي نفسها لا تعلم!

ـ بل تعلم لكنها تتجاهل ذلك .. اسمعي يا فدك .. انها مغرورة لا أتكلم معها بكلمة حتى ترد عَلَيَّ بعشرٍ!! لا تُنَفِّذَ لي أمراً وتتذمر دائماً من وضعنا في المنزل ولا تحب أمي أو لنقل لا تحب خدمتها على الاطلاق!

ـ حسناً جداً .. هل كانت هكذا في بداية زواجكما ؟!

ـ لا .. بل كانت هادئة ومؤدبة جداً .

ـ لقد تغيرت منى يا ظافر عندما رأت تعاملك معها فأنت تعتبرها خادمة أو جارية لا أكثر! ولو كنت مسلماً حقيقياً فاسمع مني كيف أوصى رسول الله بالمرأة هو وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام .

فلقد قال رسول الله صلى الله عليه واله : "المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، فدارها على كل حال وأحسن الصحبة لها فيصفو عيشك" .

ولقد جاءت امرأة الى رسول الله "صلى الله عليه واله" تسأله عن حقها على الرجل فقال : "حقكِ عليه أن يطعمك مما يأكل ويكسوك مما يلبس ولا يلطم وجهكِ ولا يصيح في وجهك" .

نظرت فدك لظافر فوجدته مطأطئاً رأسه خجلاً مما يسمع!

وعن الامام الصادق عليه السلام : "أكثر أهل الجنة من المستضعفين النساء ، علم الله ضعفهن فرحمهن" .

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) :"أوصاني جبرائيل بالمرأة حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها إلا من فاحشةٍ بيّنة" .

وقال صلوات الله عليه وعلى آله : "خير الرجال من أمتي الذين لا يتطاولون على أهليهم ويحنّون عليهم ولا يظلمونهم" .

وعنه عليه الآف التحية والسلام : "رحم الله عبداً أحسن فيما بينه وبين زوجته ، فإن الله عز وجل قد ملّكهُ ناصيتها وجعله القيّم عليها" .

وفي رسالة الحقوق عن الامام السجاد عليه السلام : "وأما حق الزوجة فأن تعلم أن الله عز وجل جعلها لك سكناً وأُنساً فتعلم أن ذلك نعمة من الله عليك فتكرمها وترفق بها ، وان كان حقك عليها أوجب فإن

لها عليك أن ترحمها وتطعمها وتسقيها وتكسوها وإذا جهلت تعفو عنها ."

قال ظافرٌ بأدبٍ ظاهرٍ: لم أسمع بمثل هذا الكلام سابقاً .. أشكرك من كل قلبي يا فدك! والآن هلّا سمحتِ لي بالانصراف وأعدكِ إن أقنعتِ منى في العودة الى منزلي فسأكون لها كما أراد الله ورسوله .

قالت فدك والفرحة تملأها :

- أعدك بأني سأحدثها ، فقد تكون هي الأخرى قد غابت عنها واجبات الزوجة تجاه زوجها .

- إن وافقت على الرجوع .. اتصلوا بي لآتي وأرُدُّها الى المنزل .

- بإذن الله .. ستوافق .

(25)

رحل ظافر على أمل أن يتصلوا به في أقرب وقت ليأتي ويأخذ زوجته ..

دخلت فدك على جمانة ومنى فوجدت الأخيرة مستغرقة بالبكاء والنحيب .. قالت وقد أشارت لجمانة بالخروج وتركهما لوحدهما :

- منى حبيبتي .. إنَّ لظافر حقٌ عليكِ .

قالت وهي تمسح دموعها :

- لكنه عاد ليأخذني من اجل أمه!!

- وماذا يعني لو أوليتِها إهتمامكِ وعنايتكِ .. هي أم زوجكِ ، وعليه هو أن يعتني بها لكنه في العمل منذ الصباح وأنتِ من تبقين بقربها فما الضير إن اعتمد عليكِ في غيابه ؟!

إنها أمه يا منى وقد جاء رجل الى رسول الله يسأله من أحق الناس على المرأة فقال صلى الله عليه واله : زوجها .

فسأله من أحق الناس على الرجل فقال : أمه!

صمتت منى وكأنها تقول لفدك : أزيديني .

- ومن ثم يا منى فلقد تكلمتُ مع ظافر عن السبب في سوء معاملته لك فقال : انها مغرورة ومتكبرة .. لاتسمع لي كلمة ولا تطيعيني ابداً.. فهل هذا صحيح ؟!

- نعم .. السن بالسن والعين بالعين .. والبادئ أظلم!

قالت تلك العبارة وقد عادت تبكي من جديد ، ثم أردفت :

- هو من بدأ بظلمي ، كانت اخلاقي معه ومع أمه جيدة بل وممتازة الى ان بدأ هو بالاساءة وصار يعاملني كالخادمة بل .. كالحيوان!!

- اسمعي يا منى .. الإسلام عندما وضع للزوج حقوق على زوجته ليس ليجعلها خادمة أو مملوكة للرجل كما نتصور للأسف ، ولقد أوضحت ذلك لزوجكِ وذكرتُ له الكثير من الاحاديث الشريفة التي تؤكد قيمة الزوجة ووجوب تقديرها واحترامها .. بل وعقوبة كل من يؤذي زوجته او يظلمها ويسيء لها بأي شكل من الأشكال .

ويبقى الآن أن تسمعي مني ما للزوج عليكِ من حقوق وواجبات فهلا فتحتِ لي قلبك قبل أسماعكِ أختاه ؟!

تكفكف منى دموعها وتنصت لفدك :

ـ قال رسولنا محمد صلى الله عليه واله : لا تؤدي المرأة حق الله عز وجل حتى تؤدي حق زوجها .

وعن الامام الباقر عليه السلام : ان الله عز وجل كتب الجهاد على الرجال و النساء سواءً بسواء ، فجهاد الرجل أن يبذل ماله ودمه حتى يقتل في سبيل الله ، وجهاد المرأة أن تصبر على ما ترى من أذى زوجها وغيرته .

وفي حديث آخر قال : جهاد المرأة حسن التبعل .

وقال الصادق عليه السلام : أيما امرأة باتت وزوجها عليها ساخط في حق لم تقبل منها صلاة حتى يرضى عنها .

وعنه عليه السلام : أيما إمرأة قالت لزوجها : ما رأيتُ منك خيراً قط فقد حبط عملها .

وأما عن صبر الزوجة على أذى زوجها فلقد قال رسول الله صلى الله عليه واله : من صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسيا بنت مزاحم .

سألت منى بفضول : آسيا بنت مزاحم ؟!

ـ نعم .. آسيا هي زوجة فرعون كانت من شدة صبرها وايمانها تدعو الله كلما طالها عذاب زوجها بالقول : اللهم ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة .

وقد جاءت امرأة الى النبي الحبيب تسأله عن حق الزوج على المرأة فقال : ان تطيعه ولا تعصيه ، ولا تتصدق من بيتها بشيء الا بإذنه ، ولا تمنعه نفسها ، ولا تخرج من بيتها الا بإذنه ، فإن خرجت بغير علمه لعنتها الملائكة حتى ترجع الى بيتها .

وقال رسول الله : أيما امرأة لم ترفق بزوجها وحملته على ما لا يقدر عليه وما لا يطيق لم تُقبل منها حسنةٌ وتلقى الله وهو عليها غضبان .

هنا قالت منى وقد شعرت بخطئها :

ـ اعتقد انني يجب ان أعيد حساباتي!

(26)

مضى عام كامل على وجود فدك في بيت خالتها سعاد .. صار تعامل غيث زوج خالتها معها يسيء يوماً بعد يوم ، بعد أن عرف الجميع بأن حب أسامة لها هو الذي جعله يرفض الزواج بأختها جمانة .

كانت فدك تشعر بالضيق والحرج من تصرفات غيث والد أسامة وكلماته الجارحة ونظراته الناقمة منها ..

ولا تجد مفراً مما هي فيه غير التوجه الى الله والدعاء والتضرع اليه سبحانه ليخلصها من محنتها هذه فلقد صارت أجواء هذا المنزل تشدد الخناق عليها وتجعلها في دوامة مستمرة من الحزن والألم .

لم تكن تحاول ان تبدي شيئاً من حزنها لأختها جمانة حتى لا تتأذى الأخيرة وتنتقل اليها عدوى الحزن والأسى .

كانت فدك تستغل نوم أختها المبكر مساءاً لتفترش هي سجادة الصلاة وتبقى تناجي الله وتتحدث اليه بدموعها قبل كلماتها :

" الهي ما تركتني يوماً حائرة تائهة ، منذ صغري وأنت ترعاني وتهتم بي كما ترعى الأم وليدها وأكثر .. حتى صرتُ أستحي منكَ ومن كرمكَ وجودكَ وعطائك .. الهي وها أنا اليوم واقفة بين يديك أطلب منك ان تُغْدِقَ عَلَيَّ أكثر وتخلصني مما ألمَّ بي ..

" يا مخلص يونس من بطن الحوت خلصني .. يا مخلص ابراهيم من نار النمرود خلصني .. يا مخلص يوسف من ظلمة الجب خلصني .. يا مخلص موسى من بطش فرعون خلصني .. يا مخلص محمد من عذاب قريش خلصني " .

ثم إنْكَبَّتْ على موضع سجودها تبكي وتردد :

" الهي أعلم ان الفرج قريب وأنا على يقين تام بأنك تسمع صوتي وترى مكاني وستأمر الأقدار قريباً جداً أن تبتسم في وجهي .. لأنك قلت : أدعوني أستجب لكم!

ولأنك قلت : قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم؟

ولأنك قلت : وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ .

فها أنا أدعوك ، وأنا على يقين بإستجابتِكَ لِدُعائي ، إذ ليس لي في هذه الدنيا سواك " .

في تلك الليلة بكت فدك كثيراً وفي قلبها أمل كبير بتفريج همها عن قريب .. إذ إن الروايات الشريفة تؤكد إن الله إذا أراد أن يفرج على عبده همه وكربه ألهمه الدعاء!

في مساء اليوم التالي جاءت منى مع زوجها ظافر لزيارة أهلها ..

رأى الجميع الفرحة والسرور على وجهيهما ، قال أبو أسامة لابنته بكثير من الارتياح :

ـ الحمد لله .. لقد عادت علاقتكما كما كانت في بداية زواجكما بل وأفضل!

قالت منى وفي عينيها دمعةُ فرحٍ :

ـ لقد مَنَّ الله علينا يا والدي ، فبعد كل هذه السنوات من زواجنا جئنا انا وظافر اليوم لنزف اليكم البشرى!

صاحت سعاد بلهفة : ـ هل أنتِ حامل؟!

قالت منى وقد سابقتها دموعها لتحكي لهم عن مدى فرحتها :

ـ نعم أماه .. الحمد لله .

حضنتها أمها واتجهت اليها كل من فدك وجمانة ليبارِكْنَ لها ويشارِكْنَها هذه الفرحة .

قال غيث وهو يمسح دموعه التي سقطت رغماً عنه فقد حاول اخفاءها حياءً لكنه لم يستطع :

ـ الحمد لله يا ابنتي .. ولكن كيف حدث ذلك وقد أخبرتكِ الطبيبة ولأكثر من مرة بأنه لا يوجد احتمال للحمل مطلقاً ؟!

قالت منى وهي تنظر الى فدك :

ـ عندما عدت الى منزلي بعد شجاري الأخير مع ظافر وبعد ان حدثتنا فدك ـ أنا وزوجي ـ عن واجبات كلا الزوجين تجاه بعضهما قالت لي يومها :

ـ انا متأكدة يا منى لو تعاملتما أنتِ وزوجكِ مع بعضكما بما يُرضي الله فسيرزقكما ذرية صالحة نتيجة لطاعتكما وتقواكما .

ثم علمتني طريقة اتقرب بها الى الله في طلب الذرية وهي (الاكثار من الاستغفار) وذلك لقوله تعالى في سورة نوح : (أستغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموالٍ وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم انهارا) .

أما عن ظافر فعلمتني دُعاءً أطْلَعْتَهُ عليه ، وهو أن يردد مئة مرة بعد كل فريضة دعاء النبي زكريا عليه السلام في طلب الذرية (ربِّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين) .

ولم تمض إلا ستة أشهر يا أبتي حتى رزقنا الله ما كنا نطلبه منه وندعوه!

وفي غرفة الأختين فدك وجمانة كانت منى تجلس مع فدك متحدثة اليها :

- فدك يا حبيبتي بعد أن مَنَّ الله عَلَيَّ بالحمل وبعد أن أخبرتني الطبيبة ان حملي يحتاج الى الراحة في الأشهر الثلاث الأولى على الأقل .. فلقد قرر ظافر أن يأتي لوالدته المسكينة بممرضة ترعاها وتدير شؤونها الى أن أكمل فترة حملي بسلام ، ولقد فكرنا أن تكوني أنتِ تلك الممرضة خاصة وإنكِ قد دخلتِ عدة دورات في التمريض في حرب الشمال الأخيرة .

ابتسمت فدك وقد شعرت بأن طلب منى هذا ما هو الا استجابة سريعة لدعائها عندما بكت كثيراً ليلة أمس وألحَّت بالدعاء ليخلصها الله من العيش في هذا المنزل!

قالت لمنى وهي تحمد الله في داخلها :

- نعم حبيبتي .. سأكون عند حسن ظنكم بي ان شاء الله تعالى .

ثم توجهت الى سجادة الصلاة بعد أن خرجت ابنة خالتها من الغرفة ، فَرَشَتِ السجادة وسجدت سجدة الشكر ثم رفعت رأسها وقد غسلت الدموع وجهها وهي تردد :

ما خاب من دعاك .. ما خاب من دعاك .

(27)

باشرت فدك عملها في منزل ابنة خالتها منى لرعاية أم ظافر تلك الانسانة المريضة ، كانت فرحتها لا توصف بعد أن استجاب الله دعائها وأخرجها من تلك الأجواء المتوترة التي كانت تعانيها في منزل خالتها سعاد .

علم أسامة بالخبر اثناء اتصال هاتفي فجن جنونه .. !

وصاح في وجه أمه :

- كيف تركتِها تذهب يا أماه كيف ؟ هل ظافر انسان محترم حتى تأمني على ابنة أختكِ معه ؟؟

- لكن ظافر تغير يا أسامة .. صدقني يا ولدي .

- لا .. لن أصدق! اسمعي أماه .. عندما تعود فدك مساء اليوم أخبريها بأني أرفض ذلك العمل .. سأرسل لها أكثر مما يرسله محمود من مال ، فقط لتترك ذلك العمل .

أغلق أسامة الهاتف وقد شعر بنار الغيرة على فدك تشتعل في صدره حتى جعلته كالمجنون الذي لا يعرف ماذا يفعل!

وعندما عادت فدك أخبرتها سعاد بكل ما قاله أسامة فرفضت ان تنفذ أمره معتذرة لخالتها بالقول :

- أخبريه حينما يتصل مرة أخرى بأنني لست بحاجة الى المال عندما قبلت بالعمل كممرضة لكني بحاجة الى تغير جو ليس اكثر .. فما اعتدت يا خالتي على جلوسي في المنزل هكذا! صرتُ أشعر بأنني كالطائر السجين الذي يتمنى الحرية حتى لو كان قفصه من ذهب!

لقد اعتدت هناك في الشمال على استنشاق الهواء النقي طوال اليوم بين السفوح والجبال والمروج الخضراء .

وفي المساء وما أن انتهت فدك هي وجمانة من غسل أواني العشاء حتى دخلت سعاد المطبخ وفي يدها جهاز الهاتف :

- خذي يا ابنتي .. انه أسامة!

ارتبكت فدك قليلاً ثم حاولت لملمة شتات نفسها وهي تقول :

- السلام عليكم ..

- وعليكم السلام ..

هكذا جاءتها كلماته لكن بنبرة تختلف عن الاتصال السابق!

كان صوته ينمُّ عن الاستياء الشديد وقد امتلأ بالعتاب والألم .. هكذا شعرت من الوهلة الأولى .

- اسمعي يا فدك .. لن أرضَ أبداً ان تعملي في منزل ظافر لأنكِ تعرفين انطباعي عن ذاك المعتوه!

- لكن يا أسامة .. ظافر تغير كثيراً .. هذه الأشهر الست التي غبت فيها عنا كانت قادرة على تغييره نحو الأفضل صدقني .. ان شئت اتصل بمنى وسوف تخبرك بكل شيء .

صاح كالمجنون :

- لا أريد الاتصال بأي أحد .. أنا آمركِ وعليكِ أن تنفذي هل فهمتِ؟!

جاءه صوت فدك مختلطاً بالآهات والبكاء فما عادت تحتمل كل هذه الفوضى في حياتها :

- لا لن أنفذ .. لأنك لا تعلم الظروف التي أعيشها في منزلكم .. فمنذ رحيلك وأنا المتهمة الأولى في قراراتك الجديدة .

هنا ركضت جمانة الى باب المطبخ وأغلقتها بإحكام حتى لا تسمع خالتها سعاد وعمها غيث ما تتحدث به فدك!

تساءل أسامة بذهول :

- ولكن ماذا تقصدين لم أفهم ؟!

هدأت فدك قليلاً ثم صارت تبوح بكل ما في داخلها من غير أن تشعر ..

هدأ أسامة هو الآخر وصار يواسيها قائلا :

- اعذريهم ارجوكِ .. فالأمر ليس هيناً عليهم كما تتصورين .. والآن أتوسل اليكِ أن لا تذهبي الى ذلك المنزل مرة أخرى.

قالت فدك وهي تمسح دموعها :

- اطمئن يا أسامة .. أنا أذهب اليهم في الساعة السادسة صباحاً حينها يكون ظافر قد خرج الى عمله قبل نصف ساعة من وصولي ، فأنت تعلم انه مشرف على الكثير من مشاريع البناء ويجب أن يكون في موقع العمل منذ الفجر .. وعندما يعود من عملهِ ظهراً لا التقي به أيضاً لأني حينها اكون قد خلدتُ الى الراحة في غرفة أمه بعد ان أحكمت غلق الباب جيداً .. ثم أعود الى المنزل هنا الساعة السادسة عصراً وهو في هذه الفترة يكون قد غط بنوم عميق في غرفته!! فهلّا قلت لي أين يمكن أن ألتقي به ؟

تنفس الصعداء وقد عاد صوته الى طبيعته قائلا :

- الآن ارتحت ..

ثم قال بشيء من الرقة واللطف :

- ورغم ذلك سأبقى خائفاً عليكِ صدقيني .

هنا حاولت فدك انهاء المكالمة قبل أن تنحى منحى آخر ، فقالت بأدب :

- هلا سمحت لي الآن .. فلقد أطبق النعاس على أجفاني ويجب أن أذهب للنوم الآن لأستيقظ باكراً وأباشر عملي من جديد .

قال مبتسماً وقد عرف السبب الذي جعلها تتهرب من إكمال المكالمة :

- حسناً حسناً .. لكن لا تنسيني من خالص دعواتكِ .

(28)

مضت الأشهر سريعاً وصار لزاماً على فدك ترك العمل في بيت ظافر ومنى بعد أن منَّ الله عليهما ورزقهما مولوداً ذكراً ، وقد كان الاتفاق منذ البداية ان ينتهي عمل فدك في رعاية ام ظافر ما أن تضع منى مولودها .

تركت فدك عملها كممرضة وعادت لملازمة المنزل في ظل تلك الأجواء المتوترة .. إنتشر خبر قرب عودة أسامة الى ارض الوطن ، حيث أخبر والديه في اتصاله الأخير بأنه سيعود لأجل الزواج .

في احدى تلك الليالي وبينما كانت الأختان فدك وجمانة تجالسان خالتهما سعاد وزوجها غيث تبادل الأخير النظرات بينه وبين زوجته ثم قال وهو ينظر صوب فدك :

- ابنتي العزيزة فدك .. لقد قررنا أنا وخالتكِ سعاد إعادتكِ الى حيث اخيكِ محمود .

وما أن سمعت جمانة كلماته هذه حتى اسرعت الى غرفتها وقد اختنقت بعبرتها ، أما فدك فقالت بذهول :

- ولكنه ليس أخي!

ثم أكملت ودموعها تسبق كلماتها المتقطعة :

- أمهلوني شهر أو شهرين .. فلعله الآن مقبل على الزواج .. عندها أستطيع العودة للعيش معه .

قام غيث من مكانه قائلاً :

- هل تعلمين بأن ولدنا أسامة سيعود قريباً ؟

قالت وقد علمت سبب طردها :

- نعم لقد سمعت هذا الخبر منذ أيام قلائل .

فقال بصوت ينم عن الاستياء :

- حسناً جداً .. عندما يعود .. يجب أن لا يراكِ هنا!

قالت ولم تعد تقوى على الحديث :

- هل تطردانني بهذه السهولة ؟! فأجابت سعاد بعيون دامعة :

- لا يوجد غير هذا الحل يا ابنتي .. أسامة يجب أن يتزوج من جمانة .. هذا ما خططنا له وهذا ما سيحدث .

هنا أُسْقِطَ بيد فدك فزواج أسامة خط أحمر يجب أن لا تُعطي رأيها به مطلقاً .

ركضت سعاد الى غرفة جمانة بعد ان سمعت صوت بكائِها ، وما أن رأت جمانة خالتها سعاد حتى وقعت على قدميها تقبلهما وهي تبكي وتقول :

- أرجوك يا خالتي لا تطردانِ أختي .. ألم تفكرا بأنها ليس لديها أحد غيركم .

قالت سعاد وهي ترفع رأس جمانة :

- ولكن يا حبيبتي .. نحن نفعل كل هذا لأجلكِ أنتِ!

- لكنني لا أرغب بالزواج من أسامة مطلقاً .. صدقيني .

قالت سعاد بغضب :

- لقد غسلت فدك دماغك .. كما غسلت دماغ ولدي أسامة .. انها شيطانة في ثوب ملاك!

قالت جمانة وقد أثارتها هذه الكلمات :

- ان قررتم طردها من المنزل فعلاً فسأخرج معها الى حيث لا عودة .

وفي الصباح سمعت سعاد أصوات تصدر من سلالم الطابق الثاني فخرجت من الغرفة لترى ما يجري فإذا بفدك وجمانة وهما تُنزِلانِ أغراضهما استعداداً للرحيل .

ضربت سعاد على صدرها وهي تقول : هل سترحلين معها يا جمانة ؟!

اتجهت جمانة نحو خالتها سعاد ، سحبت يدها وانحنت عليها لتقبلها وهي تقول :

- لن أنسَ أفضالكم عليَّ ما حييت .

حضنتها سعاد بقوة وهي تبكي وتولول :

- لن ترحلي يا جمانة .. سأتحدث مع عمكِ غيث ليسمح ببقاء فدك معنا .. هل هذا يرضيكِ يا حبيبتي ؟

قالت فدك وهي ترفع حقيبتها عن الأرض :

- حتى وان سمح لي بالبقاء فلن أبقَ يا خالتي اعذريني.

(29)

في الطريق الى الشمال كانت كل من فدك وجمانة تخفيان في نفسيهما مخاوف مشتركة .. وفي ذلك القطار المسرع نحو المجهول تحدثت جمانة وهي تضع رأسها على كتف اختها :

- ما أحوجنا اليوم الى أمِّنا يا فدك ؟!

قالت فدك وهي تربت بيديها الحانيتين على رأس جمانة :

- إنَّ أمَّنا الزهراء هي مَنْ تنظر الينا الآن!

ثم أردفت ودموعها تسبق كلماتها :

- أن ذكرنا لمصائب اهل البيت عليهم السلام يُهَوِّنُ علينا مصائبنا .. لقد عاشت الزهراء عليها السلام تحت ظل والدها رسول الله (صلى الله عليه وآله) عزيزة كريمة حتى عمر 18 عاما .. بعدها هل تعرفين ما الذي جرى لها ؟

صمتت جمانة وهي تنتظر الإجابة من فدك .. أكملت فدك :

- بعدها وجدت نفسها يتيمة بلا أب ولا أم .. تتناوشها المصاعب والآلام حتى صارت ايامها كلياليها مظلمة سوداء رغم صغر سنها .. ومن ثَّمَّ فقد أورثَتْ (عليها السلام) آلامها وأحزانها لأبنتها زينب..

قالت جمانة وقد أجهشت بالبكاء :

- وهذه أمنا رحمها الله تورثنا حزنها وألمها لنجد نفسينا وحيدتين مشردتين لا حول لنا ولا قوة!!

- انا لم اذكر لكِ معاناة أمنا الزهراء "عليها السلام" لتزدادي حزناً وألماً يا جمانة .. وإنما أحببت ان أخفف عنكِ عندما تعرفين انها وبنفس عمرنا ايضاً كانت تعاني وتقاسي صعوبة الحياة وظلم من حولها .. فهلا كانت لنا بالزهراء أسوة حسنة ؟!

سألت جمانة باستغراب :

- أنتِ ترددين دائما عبارة (أمنا الزهراء) رغم اننا لسنا من ذريتها .. ؟!

ابتسمت فدك وهي تضغط بكلتا يديها على يدي أختها :

- ما دام رسول الله وإمامنا علي أبوانا حينما قال رسول الله لعلي عليه السلام : " يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة " فحتماً ان السيدة الزهراء ستكون أمنا حتى ولو لم نكن من ذريتها . ثم ان التي ليس لها أماً تشكي لها همومها وأوجاعها كحالي وحالكِ أختاه فمن تكون أفضل من الزهراء عليها السلام حتى تكون أمها ؟!

قالت جمانة وهي تمسح دموعها :

- نعم والله .. لن نجد أفضل منها وهي سيدة نساء العالمين .

- ثم هل تعلمين يا جمانة بأن الزهراء عليها السلام كانت لا تدعو لنفسها الا بعد ان تدعو لجميع من حولها من المؤمنين والمؤمنات حتى سألها ولدها الحسن عليه السلام عن ذلك فقالت : الجار قبل الدار .. يا ولدي!

فإن كانت سلام الله عليها تدعو لمن حولها وتفضلهم على نفسها في الدعاء في زمنها فهل ستنسانا الآن وهي تنظر الينا والى معاناتنا من أعلى الجنان ؟! تأكدي بأن الزهراء معنا فاطمئني وقَرِّي عينا .

رددت جمانة بصوت شجي : أدركينا يا زهراء .. أدركينا .

(30)

هناك حيث الجبال العالية والشلالات المتدفقة قُدِّرَ لِفدك وجمانة أنْ تعيشا بأمانٍ وسعادة .

جاء الربيع وكانت المناظر الجميلة التي وصفتها فدك لجمانة تتراءى أمام ناظريها بكل روعة وجمال .. المزارع الخضراء الزاهية والجبال التي استعادت لونها الطبيعي بعد ذوبان الثلوج ، الشلالات الباردة والعصافير المزقزقة وقطعان الأغنام التي ترعى هنا وهناك .. الزهور التي بدأت تتفتح لتعطي عطوراً زكيةً لم تشم جمانة أزكى منها من قبل!

كانت فدك بين فترة وأخرى تتذكر أسامة فتدعو الله له بأن يسدده ويأخذ بيده الى الطريق القويم .

اما جمانة فكانت تتذكرهم جميعاً (خالتها سعاد ، عمها غيث ، أسامة ، منى) وتقضي أوقاتاً كثيرةً بالبكاء لشوقها وحنينها لتلك العائلة التي احتضنتها طوال كل تلك السنوات الماضية .

وفي احدى الصباحات كانت (جمانة) تجلس بكامل حجابها وقد بدت بهيئتها تلك وجمالها كملاكٍ طاهر وسط تلك المروج الخضراء ، وإذا بمحمود يتقدم نحوها بأدب وقد شعرت بالارتباك بعض الشيء فهي تحاول تجاهل مشاعرها الجياشة تجاه هذا الشاب منذ اول يوم وصلت فيه الى هذه القرية .

ـ السلام عليكم

فَرَدَّتْ بحياء : وعليكم السلام

ـ جمانة .. مالي أراكِ مهمومة حزينة منذ فترة ؟

ـ لقد اشتقتُ لأهلي في الجنوب .. ولا استطيع الاتصال بهم اذ لا يوجد اي شبكات للاتصال هنا!

ـ سأذهب اليوم الى احد مراكز الانترنت في المدينة هل ترغبين بالذهاب معي لعلكِ تسمعين شيئاً عن اخبارهم ؟

ـ آه .. نعم .. نعم سآتي معك .. لكن!

ـ لكن .. ماذا ؟

ـ قد تعترض فدك على هذا الأمر .. فهي لديها اليوم موعد مع فتيات القرية بخصوص درس القرآن ، ولن تتمكن من الذهاب .

ـ سأحدثها أنا لتسمح لكِ بالذهاب ولن نتأخر بإذن الله ، قبل صلاة المغرب سنكون في المنزل .

وفي مركز الأنترنت تفاجأت جمانة عندما أخبرها أسامة عن طريق البريد الألكتروني بأنه سيكون عندهم بعد يوم أو يومين لخطبة أختها فدك .

وفي طريق العودة لم تتوقف جمانة عن البكاء بصمت ، ومهما حاولت اخفاء دموعها عن محمود لم تقدر !!

سألها بدهشة بعد أن نزلا من الحافلة :

- ولكن الم تكوني مشتاقة لرؤيتهم وسماع اخبارهم .. فما الأمر ؟!

قالت جمانة وهي تسرع الخطى :

- سيأتي أسامة لخطبة فدك

- أوَيُزعجُكِ هذا الأمر الى هذه الدرجة ؟؟

- لا .. بالعكس ولكن!

- لكن ماذا ؟ أخبريني بربكِ يا جمانة ؟ لِمَ كل هذه الدموع ؟؟؟

- هذا يعني انني سأعود للعيش في الجنوب ، لقد أحببت الحياة هنا كثيراً وإن رحيل فدك مع اسامة يعني عودتي ..

وقبل ان تكمل قاطعها محمود :

- لا لن تعودي .. ولن اسمح بذلك !

تسمرت جمانة في مكانها .. ثم أطلقت العَنانَ لِساقَيها وهي تقول :

- يجب ان نصل الى البيت قبل الغروب فإن فدك تخشى الظلام .

قال وصار يسرع الخطى هو أيضاً ليلحق بها :

- ولكن ما بكِ يا جمانة ؟ فنحن في وضح النهار!

أكمل وهو يتحدث بصعوبة :

- لأول مرة يرهقني صعود الجبل هكذا! كله بسببكِ ، والآن هل ستجيبي عن سؤالي؟

صمتَ قليلا ثم أردف : هل تقبلين بي زوجاً لكِ ؟ وسأكون الرجل الذي يحملكِ في حدقات عينيه .

ارتبكت كثيراً وتسارعت دقات قلبها ، فلم تكن تتوقع منه هذا السؤال ..

قالت بحياء : دعني أفكر!

استشعر محمود قبولها لطلبه من طريقة كلامها ومن الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها .. فقال في ارتياح :

- الآن ذهب كل التعب والارهاق .. لنسرع يا جمانة فإن فدك تخشى الظلام !

****

بعد عام كامل رزق الله الزوجين فدك وأسامة توأماً (ولدا وبنتا) أطلقا إسم " مصطفى " على الولد وإسم " صقيل" على البنت وهو احد اسماء والدة الامام المهدي عليه السلام ..

كانت فدك توزع وقتها بين المنزل والمركز الاسلامي الذي أسسه زوجها أسامة في المانيا .

أما جمانة فلقد التزمت نهج اختها في حبها للزهراء عليها السلام وتعلقها الشديد بهذه الإنسانة العظيمة وأصرت إنْ رزقها الله بنتاً فستختار لها إسما يتعلق بذلك الحب الطاهر لسيدة نساء العالمين ..

وفعلاً فبعد سنة ونصف من زواجها رزقها الله هي ومحمود بنتاً جميلة ..

ولم يترددا لحظة بتسميتها " نور الزهراء " .

****** النهاية ******